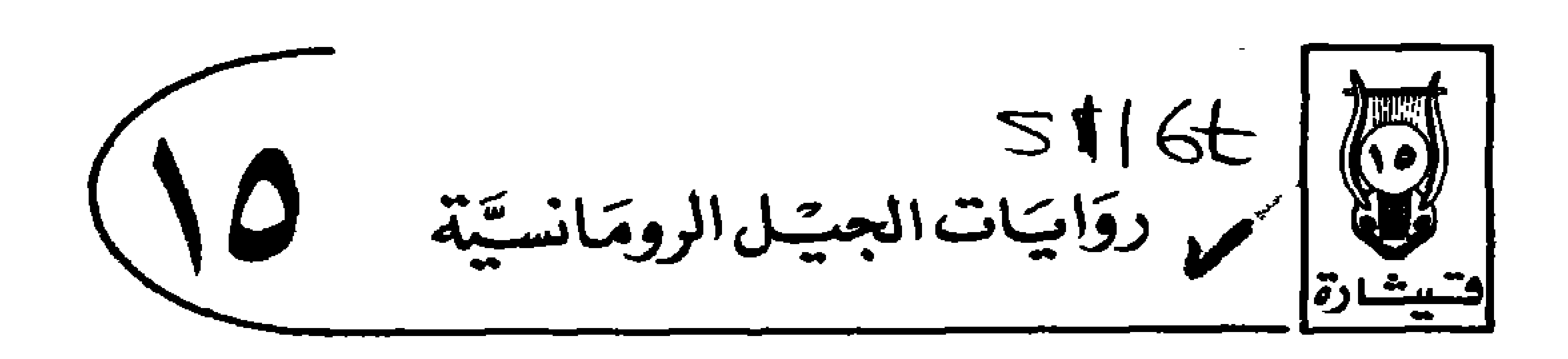

روايات الجميل الرومانسية
قيثارة
طريق الأشواك
تأليف
مجدي صابر

طريق الأشواك



طريق الأشواك

تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعَـة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

«فاتنة السيرك»

دق المهرج العجوز فوق طبلة صغيرة معلقة بحبل إلى رقبته، وصاح بأعلى صوته: تعالوا يا أولاد.. تعالوا يا بنات. وشاهدوا السيرك العجيب، والساحر الغريب، ومروضة الوحوش الشجاعة نرجس، وملكة جمال السيرك، ولاعبة الأكروبات والحبل والعقلة، وكل الألعاب، «سلمى العجيبة».. تعالوا يا أولاد.. تعالوا با بنات.

وعاود المهرج دق الطبلة، وقد أوشك صوته أن يبح، وهو واقف في مدخل السيرك المتهالك الذي كان عبارة عن خيمة كبيرة انتصبت في بقعة واسعة بالحي الشعبي علقت فوق جدرانها المهترئة صور بدائية مشوهة خطتها يد رسام مبتدئ..

ولم تفلح الأصباغ الثقيلة فوق وجه المهرج والأنف البلاستيكي الكبير ، في إخفاء معالم الإرهاق والمرض من فوق الوجه الهزيل الشاحب .

وتجمع بعض الصبية والأولاد وقد دفعهم الفضول للاقتراب . . وبداخل كشك صغير من الخشب كانت ثمة عجوز تبيع التذاكر للداخلين ، وتوزع عليهم أشرطة من الورق الملون ، يمكن أن توضع كقبعة ورقية فوق الرأس ، وقد طبع عليها رسم لسيرك عظيم مليء بحيوانات مدهشة .

واقترب المهرج من المرأة الجالسة داخل الكشك الخشبي وسألها في قلق : هل بعت كثيراً من التذاكر الليلة؟

فأجابته في أسى : إن ما حصلته من مال لا يكاد يكفي ثمن إنفاقنا اليوم .

فتضاعفت معالم الأسى والحزن فوق وجه المهرج . . وتهدل كتفاه أكثر . . وقفزت إلى ذهنه ذكرى قديمة حبيبة . . ذكرى مضت عليها سنوات بعيدة عندما كان لا يزال شاباً ، قادراً على القفز بالزانة والسير فوق الحبال ، والقيام بكل الألعاب البهلوانية ، حتى أنه صار نجم سيرك الحلو الشهير ، وطاف العالم كله . . وصورته المجلات والجرائد باعتباره بطل

السيرك . . ولكن ذلك كله قد ذهب الآن . . ولم يعد له غير الذكرى والبقايا . . بقايا سيرك عجوز متهدم يتنقل بين الأحياء . . ولا يكاد إيراده يغطي نفقاته . . ولا يستطيع صاحبه أن يمتهن مهنة أخرى . .

فمن عشق مهنة الأخطار . . لا يهنأ له العيش بعيداً عنها .

وتذكر شيئاً أعاد البهجة إلى قلبه كأنما مسته يد السعادة . . فاستعاد المهرج الكهل حيويته ، وعاد يدق فوق الطبلة بنشاط عظيم ، صائحاً كأنه يخاطب جمهوراً غفيراً : تعالوا وشاهدوا ملكة جمال السيرك وكل سيرك . . لاعبة الأكروبات المدهشة والفتاة العجيبة . . سلمى الجميلة .

ولكن أحداً لم يلب نداء المهرج العجوز . . فتهدل كتفاه اكثر وسار مطأطئ الرأس إلى داخل خيمة السيرك الكبيرة . .

وأعطى المهرج إشارة البدء . . فتلقاها منه في صمت ابن أخيه ناصر الذي لم يكن في حاجة لأن يدرك سر أحزان عمه . .

خمساً وعشرين سنة قضاها في كنف المهرج الكهل جعلته قادراً حتى على قراءة أفكاره . . ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل للترفيه عنه؟

وأمسك ناصر بميكروفون صغير قديم تم شراؤه بقروش قليلة من سوق وكالة البلح، وهتف فيه بحماس: الآن يبدأ برنامجنا المدهش بالساحر العجيب.

وأقبل الساحر الحجيب..

ولم يكن غير المهرج ذاته وقد راح يخرج من جيبه أشرطة ملونة وبضع أوراق للكوتشينة.. ثم أخرج من قبعته حمامة صغيرة، ولكنها بدلاً من أن تستقر فوق كتفه كما دربها من قبل، انطلقت هاربة من باب الخيمة المفتوح بلا عودة، فضج الجمهور بالضحك في سخرية. وغمغم المهرج العجوز في أسىً: حتى الحمامة الصغيرة أرادت أن تغادرنا بعد أن يئست من إصلاح حالنا.

ثم سار مطأطئ الرأس يغادر المكان.. وعلا صوت ناصر وهو يقول في الميكروفون: والآن حان وقت أخطر ألعابنا.. مع مروضة الوحوش نرجس العظيمة.

ولم تكن نرجس غير العجوز التي كانت تبيع التذاكر بالخارج.. وأقبلت وهي تحجل وخلفها عدد من الكلاب في خوف إلى الوراء، فرفعت نرجس يديها للجمهور كأنها تنتظر التحية لقيامها بعمل عظيم.

ولكن الجمهور القليل الحاضر كانت له ردة فعل وحيدة لم تتغير أبداً خلال مئات الحفلات السابقة.

تعالت صفارات الاحتجاج والضحكات الساخرة والشتائم. وصرخ الجالسون وهم يدقون بمقاعدهم بأيديهم وقد أوشكوا على تحطيمها مرددين في نغمة ثابتة: سيرك أونطه.. هاتوا فلوسنا.

واستدار ناصر بعينيه مستنجداً نحو مدخل السيرك..

وفي تلك اللحظة ظهرت سلمى في ملابس السيرك..

وعلى الفور ذاب غضب الجمهور.. وحملقوا بأفواه فاغرة وعيون واسعة نحو سلمى.. كانت تبدو كأنها من عالم آخر لا ينتمي إلى ذلك السيرك المتهالك.. بشعرها الأصفر القصير المصبوغ كأنه هالة ذهب حول وجهها الجميل الفاتن.. وقوامها الممشوق الرائع الذي أخفاه بذلة مطاطية صفراء يتوسطها حزام أحمر عريض وحذاء أسود.

كان لظهور سلمى فعل السحر.. فما لبث جمهور الحاضرين أن أطلق صفيره إعجاب وراح يصيح باسمها في نغم: سلمى.. سلمى..

ومسح المهرج الكهل دمعة سعادة طافت بمقلتيه وهو يراقب

ابنته. . واقتربت منه نرجس زوجته العجوز تربت على كتفه إشفاقاً وخلفها كلابها قد بدأت التقاتل دون سبب. .

وغمغم المهرج لزوجته : لا أدري ماذا كنا سنفعل لولا سلمى.

فجاوبته العجوز بنظرة كساها حزن عميق وربتت فوق كتفه في إشفاق.

أما ناصر فتعلقت عيناه بسلمى الجميلة الفاتنة في إعجاب آسر كشفته عيناه. . وهمس في قلق وتوتر : ليحرسك الله يا عزيزتي.

وبدأت سلمى في تسلق سلم الحبل المجدول الصاعد إلى قبة خيمة السيرك في رشاقة حتى وصلت إلى نهايته. . وهناك كانت عدة أرجوحات متباعدة تتدلى من سقف السيرك. .

وتهيأت سلمى لعملها. . ثم وفي مرونة فائقة قفزت نحو أولى الأرجوحات العالية وطارت بها. . وأغمض ناصر عينيه في توتر شديد. .

كانت الندبة الواضحة في جبهته، وذلك العرج الواضح في مشيته يذكرانه بتلك الحادثة التي مر عليها سنوات وهو يؤدي اللعبة نفسها. . وبعدها امتنع عن تقديم مثل تلك الألعاب البهلوانية.

ولكن سلمى كانت شيئاً مختلفاً . . ولا تهاب الخطر أبداً .

وفتح عينيه على شهقات الجمهور . . فشاهد سلمى تؤدي أخطر ألعابها جميعاً وهي تقفز من فوق الأرجوحات المدلاة من السقف في جسارة . دون أن يكون تحتها حتى ولا شبكة النجاة التي تحميها من الارتطام بالأرض إذا ما سقطت أو اختل توازنها لأي سبب .

ولم تكن هناك شبكة نجاة لأنهم لم يمتلكوا ثمنها .

وتعالى التصفيق بعد أن انتهت لعبة الأرجوحة . .

وتعلق بصر ناصر في اشتياق بالغ بسلمى . . ولكن نظراتها المتوهجة كانت مسلطة نحو ذلك الجمهور القليل الفقير الذي التهبت أكفه بالتصفيق .

وأسرعت سلمى تختفي وراء الكواليس . . لتحصل على بعض الراحة بعد فقرتها المدهشة ، وقبل أن تؤدي فقرتها الثانية . .

والتقط ناصر نايا من سترته ليشغل الفراغ الزمني بين فقرتي سلمى . .

وأمام الميكروفون راح يعزف بالناي أنغاماً شجية . . كانت مهارته في العزف على الناي لا تُدانى . . وكانت أنغامه رقراقة صافية كأنها تنهل من بحر الحزن والشجن . .

كأنها تستعيد ذكرى حزينة قديمة . .
أو كأنها دموع باكية وليست نغماً حزيناً . .
ولكن الصفير تعالى بشدة . . وتطايرت أشياء كثيرة تجاهه من الحاضرين الذين علا صراخهم مرددين : سلمى . . سلمى . . سلمى . .
وأوشكوا أن يحطموا مقاعد المكان . .
وتوقف ناصر عن العزف في حزن وأسى . . وانسحب من مكانه في صمت لحظة دخول سلمى . . وساد سكون عجيب وسلمى قد راحت تتسلق السلم المجدول لتبدأ فقرتها الثانية في السير فوق الحبال ، وقد تعلق بصر الحاضرين بها .
وألقى ناصر على سلمى نظرة حزينة . .
كان مستعداً بسببها أن يتلقى إهانات كثيرة من المشاهدين . . كان راضياً أن يبقى في الظل دون عمل حقيقي في السيرك . . لكي لا يبتعد عنها . .
كان يحبها .
وتسلل خارج السيرك أمام الأرض الخربة المتسعة ، وجلس وحيداً يعزف بنايه بأنغام شجية . .
جلس يعزف دون أن يخشى مقاطعته من أي كان .

كان يعزف لسلمى . . حتى دون أن تسمعه أو تشعر به .

في أحيان كثيرة يشعر أنها لا تحس حتى بوجوده . . بالرغم من أنهما نشآ معاً في مكان واحد لسنوات بعيدة . . كأنهما أخوان أو صديقان حميمان .

كان يكبرها بخمس سنوات . .

وكان والداه نجمي السيرك ذات يوم . . ثم انقطع بهما الحبل الذي كانا يجيدان السير فوقه . . ولم ينفع معهما أي دواء أو جراحة لعلاج الكسور التي أصابتهما . . وتكفل العم بالطفل اليتيم . . وكبر هو وسلمى . .

كانت هي شيئاً مختلفاً . . بجمالها ورقتها واندفاعها وجرأتها . .

بأحلامها المتسعة اللانهائية . . على حين كانت أحلامه هو صغيرة ضيقة . . لا تزيد عن مساحة ذلك السيرك المتواضع المهترئ الجدران . .

وربما لأجل ذلك لم تكن تشعر به . . كانت تدرك أن طريقيهما لن يتلاقيا أبداً .

وتوقف ناصر عن العزف الحزين وهو يسمع صراخ الجمهور بالداخل ، وهو يصيح باسمها في انتشاء . .

ولم يطاوعه قلبه . .

أراد أن يراها في قمة لحظة توهجها.

واستدار إلى الداخل عائداً.. ولكنها كانت قد غادرت الساحة.. كأنها تضن عليه بأن يراها في قمة انتشائها.

وانصرف الحاضرون.. وساد السيرك صمت عميق لا يقطعه غير نباح الكلاب الجائعة.

وكانت ثمة حجرات خشبية في نهاية السيرك.. في منتصفها حجرة سلمى..

ولكنه لم يجرؤ أن يطرق بابها.. وجلس عند طرف حجرته وراح يعزف بنايه كأنه يبث شكواه لمخلوق غير مرئي.

وتوقف نباح الكلاب وكأن الصوت الساحر قد خلب لبها..

وظهرت سلمى من حجرتها.. كانت لا تزال بملابس العرض.. ووقفت لحظة تحدق في ناصر دون أن يلمحها.. كانت تحب دائماً أن تسمع أنغامه الشجية. تعشق نايه.. منذ طفولتها وذلك الصوت يهدئ من أوجاعها.. يرطب من هجير أحلامها التي ترفض أن تتحقق داخل ذلك السيرك الفقير.

وتوقف ناصر عن العزف واستدار نحو سلمى.. وتواجها لحظة فسألته هامسة: لماذا توقفت عن العزف؟

فسألها في شوق: هل تحبين عزفي؟
فأجابته باسمة : أنت تعرف ذلك منذ زمن .
فسألها وصوته يرتعش : وأنا يا سلمى؟
أدركت عما يتحدث . . فهمت ما يقصده على الفور . .
تعقد حاجباها الرفيعان المرسومان بدقة فوق صفحة وجهها . .
استدارت لتعطيه ظهرها وقالت في صوت غاضب : أنت ماذا يا ناصر؟

كانت لهجتها عدائية تفتعلها لكي لا تمنحه أي فرصة للمزيد من الحديث .

دائماً كلما أراد أن يفاتحها في ذلك الأمر ، كانت تقطع عليه الطريق بتلك اللهجة العدائية . .

نكس بصره في صمت وألم . . واستدارت هي إليه لتقسو عليه أكثر ، وحاصرته بنظراتها ، بعينيها الواسعتين ، بشفتيها الورديتين المكتنزتين . . برائحة التهكم التي اكتسى بها صوتها . . وسألته في إصرار : أنت ماذا يا ناصر؟

كان في كلماتها تحد وغضب . . كأنها لا ترى منه غير ندبة وجهه وعرجه الخفيف . . أو كأنها تعايره بهما .

وأحس ناصر بالعجز والألم فغمغم في صوت محتقن : لا شيء .

وانسحب في صمت إلى حجرته الخشبية . .

ومن داخل حجرته جاء صوت نايه الحزين الشجي . .

ولكن تلك المرة لم نقف سلمى لتنصت . . بل اتجهت إلى حجرتها . . ودخلتها ثم أغلقت خلفها بابها الخشبي في عنف .

وبعد قليل خفت صوت عزف الناي .

وبدأت الكلاب الجائعة عزفاً من نوع آخر ، بدد سكون المكان وسكينته .

* * *

«الفرصة الذهبية»

لم يكن جمهور الحاضرين في المساء التالي أكثر عدداً . . ولكن كان ثمة شخصان في بذلات أنيقة جلسا في مقدمة الصفوف دون أن يستطيعا إخفاء علامات التأفف الواضحة عليهما من قذارة المكان .

وعندما حانت لحظة ظهور سلمى وصياح الجماهير هاتفة باسمها . . أدهشها لحظة دخولها ساحة العرض أن وجدت ناصر واقفاً أمامها وقد ارتدى بذلة للأكروبات البهلوانية مشابهة لبذلتها .

أدهشها ما تراه لحظة خاطفة ولم تدرك ما يعنيه على الفور . . ولكن ذلك البريق المتألق في عينيه ، وتلك الأفكار الجنونية التي تعصف بملامحه ويرتعش لها فكه العريض

وشاربه، جعلها تدرك أنه قد قبل التحدي.

سيغامر بعجزه وخوفه وساقه العرجاء ليشاركها لعبتها الخطرة.. فقط لكي يتخلص من ذلك الشعور بالضآلة والعجز أمامها..

ربما لكي تنظر إليه بعد ذلك نظرة مختلفة.. ولتدرك أنه قادر على أن يكون نداً لها إذا أراد.

ولم يكن أمام سلمى وقت للنقاش.. أو الرفض..

كانت في قمة غضبها.. توشك أن تنفجر في ثورة عارمة رافضة.. كانت تعرف أن ذلك الجمهور القليل الذي جاء قد حضر خصيصاً لمشاهدتها.. وأن ناصر يريد أن يستولي على جزء من نجاحها..

وما كان يمكنها أن تثير نقاشاً أو عاصفة غاضبة أمام المشاهدين.. فلا بدَّ تأجيل ذلك إلى ما بعد انتهاء العرض.. ووقتها سيصبح الحساب عسيراً..

ولم يتبادل ناصر معها كلمة واحدة.. أوضحت عيناه عما يريد قوله دون أن ينطق بحرف.

وصعد الاثنان معاً سلم الحبال المجدول.. ثم بدءا لعبة التأرجح وهما معلقان في الهواء..

وتعمدت سلمى أن تبتعدِ عنه . . أن تجعله يمد يديه لتلقفها فتقفز إلى أرجوحة اخرى غير التي يقف عليها . . كأنها ترفض أن تشاركه ولو إحدى الألعاب . . كأنها تعلن رفضها له بطريقة عملية ، وهما معلقان على ارتفاع عشرات الأمتار .

وأدرك الجمهور أن ثمة شيئاً خفياً يجري بين اللاعبين ، فتوقفت أنفاسهم وهم يراقبونهما بعيون واسعة نهمة . .

وأنهت سلمى لعبة الأرجوحة سريعاً . . ثم اتجهت إلى الحبل المشدود بين نهايتي السيرك . . وألقت بنظرة قاسية إلى ناصر . .

كأنها تعلم يقيناً أنه لا يستطيع أن يؤدي معها نفس الفقرة . . المشي فوق الحبل . . كأنها تذكره أن عاهته وقدمه العرجاء يستحيل أن تحفظ له توازنه فوق الحبل المشدود . . أو تجعله يخاطر بذلك .

ثم استدارت ببصرها إلى الجمهور ووقفت تتلقى التحية . . كأنها أميرة تطل على رعاياها من علو ساحق . . تلقى بالتحيات والهدايا لمن أرادوا تكحيل عيونهم برؤيتها .

واستدارت في بطء نحو شيء صغير ملقى في الركن بأعلى . . دراجة صغيرة قديمة ذات إطارين . . وضعتها سلمى فوق الحبل وجلست فوقها .

وشهق الحاضرون . . ودق قلب ناصر في عنف . . أراد أن يصرخ فيها . . أن يندفع إليها محذراً . .

كان الجنون هو ما توشك أن تفعله . .

كانت نفس اللعبة التي هوى بسببها أبوه وأمه من فوق الحبل المشدود . . إلى حتفهما . . ولكن سلمى لم تترك له أي فرصة للاعتراض . . كأنها توضح له عملياً الفارق بينها وبينه . . كأنها تريد أن تقتل أحلامه فيها إلى الأبد . .

وتحركت بالدراجة في مهارة بالغة . .

سارت بها ببطء فوق الحبل المشدود وفي توازن بالغ المهارة . . وقد احتسبت أنفاس جمهور الحاضرين ، وتعلقت أبصارهم بتلك الفاتنة الساحرة التي تؤدي لعبة خطرة مجنونة . .

وفي منتصف الحبل المشدود توقفت سلمى بدراجتها دون أن تهتز . . ثم بدأت ترفع جسدها ببطء عن الدراجة ، وقد تشبثت بها بكفيها الرقيقين . . والدراجة قد اتزنت فوق الحبل بلمسة دقيقة بحيث كان أقل انحراف كفيلاً بإسقاط الدراجة وراكبتها على الأرض . .

وأصاب ناصر شلل . . وأغمض عينيه كأنه لا يصدق ما

تقوم به سلمى . . ومن أسفل حدَّق والدها ووالدتها إليها في هلع لا مزيد عليه . . وصرخ الأب: سوف تسقط . . هذه لعبة تحتاج إلى تمرين سنوات طويلة ، وهي لم تتدرب عليها بما فيه الكفاية .

وتعالى صياح جنوني وهتاف من الحاضرين فذابت صرخة الأب وسطها . .

وانتشت سلمى بالسرور والسعادة وهي مكانها معلقة في الهواء . . وألقت ببصرها لأسفل فشاهدت الحاضرين وقد اندفعوا في لهيب محموم يصفقون ويصرخون باسمها .

وأغمضت عينيها في نشوة لا مزيد عليها .

لم تكن تعشق في الدنيا أكثر من أن تسمع اسمها وسط ذلك الهتاف والصراخ من المشاهدين . .

وتحرك جسدها المعلق إلى أعلى ليهبط ببطء . . ولكن ، وقبل أن تستقر ساقاها فوق الدراجة الصغيرة اهتزت الدراجة تحتها هزة ضئيلة لم يشعر بها إنسان آخر . . ولكن الهزة تسببت في إنحراف إطار الدراجة عن الحبل ، وفي الحال فقدت الدراجة اتزانها ومالت براكبتها جهة اليسار . .

وصرخت سلمى وهي تشاهد نفسها تهوي لأسفل . .

وتشبثت أصابعها بمقعد الدراجة الصغير . . ولكن وفي اللحظة الأخيرة اشتبك بدال الدراجة الصغير بالحبل المشدود . . وتعلقت الدراجة في الهواء تتأرجح براكبتها وتوشك أن تهوى بها .

وصرخ الجمهور في فزع . . وجن جنون الأب وصرخ في ابنته : أسرعي بتسلق الدراجة وتشبثي بالحبل .

ولكن قوى سلمى كانت قد خارت ولم تعد تقوى على أن تفعل أي شيء .

لم تكن خائفة . . فقط كانت تشعر بإحباط قاتل وبهزيمة مريرة وبفشلها بتأدية تلك النمرة الخطرة . .

وجعلها إحساسها بالفشل تفقد كل ما لها من قوة . . ولم تقدر حتى على أن ترفع ذراعها لأعلى ، لتمسك بالحبل المشدود وهي تشاهد من مكانها بدال الدراجة الصغير يلتوي ببطء ويوشك أن يتحطم تحت ثقلها . .

وصرخت سلمى في فزع . . صرخة رعب حقيقية . .

وأدرك ناصر على الفور ما سيحدث بعد لحظات خاطفة .

ولم يكن أمامه من سبيل آخر . . وكان مستعداً للمخاطرة بحياته . . دون تردد تحرك من مكانه وهو يعرج فوق الحبل المشدود بقوة كالوتر . .

واحتسبت أنفاس المشاهدين وهم يراقبون المشهد الجديد الأكثر إثارة . .

كان ما يفعله ناصر هو الجنون بعينيه . . فمنذ سنوات لم يمارس المشي على الحبل . . كان ذلك قبل إصابته ، وهو في حياته لم يسمع عن لاعب سيرك به عاهة في قدميه ، يمارس السير على الحبل . ولكن هل كان يمكنه أن يتخلى عن محبوبته ولو فقد عمره؟ فالحب يجعلنا دائماً نقوم بأفعال أشبه بالمستحيل ، ولا نقدر على الإتيان بها أبداً في حياتنا العادية .

وسار صوبها وقد احتسبت أنفاسه . . وتعلقت أبصار الحاضرين به في لهاث مكظوم . . وأخيراً تمكن من الوصول إلى مكان سلمى . . وانحنى ببطء ليمد يده اليمنى إليها ، وقد تشبث باليسرى بالحبل المشدود لتحميه من السقوط .

ودون أن تفكر تعلقت سلمى بذراع ناصر . .

أمسكت به بكل قوتها في اللحظة التي تحطم فيها بدال الدراجة فتهاوت لأسفل في صوت مدو . . ولكن ناصر جذب سلمى لأعلى بكل قوته حتى استقرت فوق الحبل المشدود في اللحظة المناسبة .

وتعالى صراخ المشاهدين وصفيرهم في جنون . . بكى

بعضهم من الفرحة والسعادة واحتضن الآخرون بعضهم بعضاً . .

وهز الجالسان في بذلات أنيقة رأسيهما في ارتياح وابتسام .

وحتى المهرج العجوز قفز من مكانه صارخاً في سعادة جنونية : لقد فعلها ابن أخي . . فعلها وكان جريئاً مجنوناً مثل أبيه .

ومسحت نرجس دموع السعادة من فوق وجنتيها غير مصدقة نجاة ابنتها .

والتفت ناصر إلى سلمى وهما مكانهما فوق الحبل المشدود . . ورأى في عينيها دموع ساخنة ملتهبة . .

لم تكن دموع سعادة لنجاتها . . ولا كانت دموع شكر لإنقاذه لها .

كانت دموع ألم وغضب . . كأنها غاضبة من نفسها لأنها وقعت في ذلك الخطأ . . أو غاضبة منه لأنه سلب منها نجاحها وتصفيق الجمهور .

واندفعت سلمى جارية فوق الحبل إلى نهايته ، ثم هبطت سلم الحبال وهرولت إلى حجرتها وأغلقت بابها على نفسها ثم انفجرت في بكاء مرير .

وتحـرك ناصـر فـوق الحـبل والأكف تصـفق له وتـصـفـر إعجاباً . .

ولكن قلبه كان مليئاً بالمرارة والأحزان . .

كان قـد أنقذ حـياة محـبوبتـه ورفيقـة صباه . . ولـكنه كان يدرك أنه بما فعل ربما يكون قد خسرها إلى الأبد .

*   *   *

وأفاقت سـلمى على الدقات المتـوالية فـوق بابها الخشبي . .

فصرخت في غضب : ابتعدوا عني . . لا أريد أن أرى أحداً .

ولكن صوت أمها جاء من الخـارج يقول لها : هناك رجلان يرغبان في مقابلتك ويلحان في ذلك .

فعادت تصيح في ثورة : لا أريد أن أقابل أحداً .

قالت الأم في رجاء : إنهما يبدو عليـهما الأهمية والثراء . . ولعلهما يريدانك في أمر مهم .

توقفت سـلمى عن البكاء وحدقت في الفـراغ . . وتساءلت في توتر عمن يكون هذان الرجلان .

كـانت تحلم دائـماً بمن ينتشلهـا من أركـان ذلك السـيرك

الوضيع ، ويفتح لها أبواب العالم الآخر . . حيث الشهرة الحقيقية والأضواء والمال الكثير . . ولطالما انتظرت أن يطرق الحظ بابها . . فهل يمكن أن يكون قد جاء في تلك اللحظة؟

في قمة لحظة إحساسها بالهزيمة؟

وما كانت تستطيع أن تغامر بالرفض . . فصاحت في أمها: سآتي حالاً . .

وأسرعت تضع بعض مساحيق التجميل فوق وجهها لتخفي آثار الدموع ، ثم اندفعت إلى الخارج .

وفي حجرة والدها الضيقة كان الضيفان جالسين فوق دكة خشبية طويلة برزت في حوافها بضعة رؤوس مسامير ملتوية .

لأحدهما ملامح رجال الأعمال وقد تعدى الخمسين . . أما الآخر فكان وسيماً فارع الطول بشعر أشقر وعيناه زرقاوان ، وقد بدا كأحد نجوم السينما . فتعلق بصر سلمى به وهي تشعر نحوه بجاذبية لا تقاوم .

ومد الرجل الوقور يده مصافحاً سلمى وهو يقول لها : إنني أدعى سمير توفيق . . صاحب السيرك العالمي .

دق قلب سلمى بين ضلوعها وكادت تشهق من الانفعال وهي لا تصدق أنها تصافح صاحب أشهر سيرك في مصر

بأكملها . . حيث يعتبر مجرد الانتساب إلى هذا السيرك الضخم هو منتهى أمل كل لاعب سيرك .

وأكمل سمير باسماً : لا شك أنك سمعت عن سيركي .

فغمغمت في اضطراب : دون شك .

وأشار سمير إلى الشاب الوسيم بجواره قائلاً : وهذا هو فريد . . لاعب السيرك الأول لدينا . . وصاحب أخطر الألعاب البهلوانية فيه .

مدت سلمى أصابع مرتعشة تصافح الشاب الوسيم . . فالتقط كفها بين أصابعه في رقة وهو يمنحها ابتسامة عريضة مرحبة .

وقال سمير : لقد حضرنا صدفة لمشاهدة هذا السيرك . . فأنا أؤمن دائماً باكتشاف المواهب الجديدة . . تماماً كما يفعل أصحاب اندية الكرة ، ولذلك كنت أصطحب فريد دائماً في أيام أجازات السيرك لنتجول في الأحياء الشعبية بحثاً عن بعض الموهوبين داخل السيركات الصغيرة . . ويبدو أن حظنا حسن لأننا عثرنا عليك الليلة . . فكأننا اكتشفنا كنزاً .

لم ينطق الأب بشيء وزم شفتيه صامتاً . . واتسعت عينا الأم ببريق حاد . . أما سلمى فتصاعد لهاثها حتى بدت

كالمحمومة . . ها هي توشك أن تحقق مرة واحدة ، وفي لحظة ما كان يمكن أن تتخيله أبداً . . واستدارت فتقابلت عيناها بفريد . . وشعرت أن هاتين العينين تأسرانها وتشلان أي إرادة أو مقاومة لها . .

وأفاقت على صوت سمير وهو يقول : لن أخفي عليك أن أي سيرك في حاجة إلى نجمة دائماً ، وقد كان هذا هو ما ينقص السيرك الذي أملكه . . كنت في حاجة إلى لاعبة سيرك تمتلك المهارة والجرأة والشجاعة . . بجانب الجمال طبعاً .

وأضاف بابتسامة واسعة : وقد وجدت ذلك كله عندك أنت .

غمغمت في همس : شكراً لك .

وعلق فريد قائلاً : بالطبع أنت في حاجة إلى بعض التمرين المكثف لتتعودي على ألعابنا التي نقدمها في السيرك . . فقد قررنا أن نصنع منك نجمتنا القادمة .

وأكمل بابتسامة : ومن يدري ماذا ستنتهي به الأمور عندنا . . فقد تنطلقين من نجومية السيرك إلى النجومية العالمية كما حدث لشريكتي السابقة في الألعاب التي كنا نقدمها معاً .

أغرورقت عينا سلمى بدموع السعادة . . كانت تشعر أنها

تحلق في السماء . . تحلق فوق أحلامها . . تكاد تقبض على أحلام جديدة لم تراود ذهنها قط .

وقال سمير : وسنمنحك المال الذي ترغبينه . . أنا لا يهمني المال . . فقط كل ما أبغيه هو صنع نجمة جديدة . ومد إليها ورقة قائلاً : لنكتب العقد الآن . . وحددي فيه شروط العمل التي ترغبينها . . والمرتب الذي تريدينه .

لم تجد سلمى ما تقوله . . كان لسانها عاجزاً عن النطق . . والتقطت الورقة بأصابع مرتعشة . . ووقعت عيناها رغماً عنها على مدخل الباب فشاهدت ناصر واقفاً به .

كان من الواضح أنه رأى وسمع كل شيء . .

وانسحب في صمت ومرارة لكي لا يشهد اللحظة التي عاش سنوات طويلة يخشى حدوثها . .

* * *

«حب . . ونسيان»

كان يوم افتتاح البرنامج الجديد للسيرك العالمي مبهراً . . وحديث كل الناس . فبضل الدعاية المكثفة وعشرات المهرجين الذين جابوا الشوارع يدقون الطبول ويقومون بحركات الأكروبات ليلفتوا الأنظار . . وبفضل الإعلانات التليفزيونية المدفوعة الثمن . . وبفضل إعلانات الجرائد والمجلات ، والتذاكر المجانية الكثيرة التي وزعت في سخاء . .

كل ذلك قد جعل ليلة الافتتاح حدثاً مشهوداً . . وقد ازدان مدخل السيرك بأنوار قوية متلألئة كأنها فصوص من الماس الثمين تحيط بجيد حسناء بارعة الجمال . .

وفي كل مكان بالسيرك . . وفي المدخل وفوق الجدران والحوائط علقت صورة سلمى . . وقد أطلق عليها لقب فاتنة السيرك .

وكانت فاتنة بحق في الصور التي أظهرتها ترتدي بذلة من الحرير اللامع، وشعرها الذي صبغته بلون النار، فتحول كما لو كان لهباً مستعراً حول ملامحها الجميلة.

كانت أغلب الدعاية ترتكز على تلك الحسناء الفاتنة لاعبة الأكروبات المدهشة.. ولأجل مشاهدتها كان حضور نصف المشاهدين على الأقل.

ووقف ناصر لحظات طويلة يحدق في صور سلمى العديدة المنشورة في مدخل السيرك.. وأحس كأنه يرى صورة غريبة عنه لأخرى لا يعرفها.

وكاد يتراجع ويعود من حيث أتى.. ولكن.. كانت بداخله رغبة لا تقاوم لأن يرى سلمى بعد أن غابت عنه شهرين كاملين قضتهما في تدريب شاق داخل السيرك العالمي، دون أن تفكر في زيارة والديها مرة واحدة.

وعندما جاء أحد عمال السيرك إليه وإلى والد سلمى بتذاكر الافتتاح، ندّت دمعة من عين الأب وقال لناصر: اذهب أنت يا ولدي.. فأنا لم تعد لي قوة الذهاب إلى أي مكان.

كان الأب حزيناً..

صدمته قسوة ابنته ونسيانها له.. لم يكن يدري أنه ما أن

تتاح لها أول فرصة للنجاح حتى تغادر شرنقتها إلى الأبد دون أن تلقي ولو نظرة واحدة على الماضي . . على أبيها وأمها .

وكانت الأم متلهفة لترى ابنتها . . ولكن حالة الأب السيئة لم تكن تسمح لها أن تتركه وتذهب .

أما ناصر فبقي يغالب آلامه وتردده . . إلى أن ذهب .

وجلس بين صفوف المشاهدين . . وتلفت حوله في انبهار . . كان المكان رائعاً فخماً متسعاً . . تكلف إنشاؤه مئات الألوف . . وكانت المقاعد وثيرة وساحة العرض واسعة وعريضة ، والحيوانات المدربة ثمينة وغالية ونادرة . . . وكل القائمين في المكان من المحترفين الذين يتقاضون مرتبات كبيرة دون شك .

كان سيركاً حقيقياً . . وليس مثل ذلك السيرك الذي يملكه عمه .

وابتلع ناصر لعابه في توتر . . ونكس رأسه وإحساس قوي بالهزيمة يشمله . . كانت سلمى على حق في أن تنتمي إلى ذلك المكان الجديد الساحر . .

وبدأ برنامج السيرك وكانت فقراته فخمة مدهشة . . وبعد وقت وقف المذيع في بذلته المزركشة الثمينة ليقول : والآن

نقدم لكم أقوى وأجرأ جزء في فقرات عرضنا المدهش . . إنها فاتنة السيرك ولاعبة الأكروبات الحسناء . . سلمى الجميلة . . ومعها فتى السيرك الأول وساحر الألعاب البهلوانية فريد .

وتعالى التصفيق الحاد ، وأظلم المسرح تماماً . . ثم سلطت بقعة ضوء على شخصين كانا يدخلان المسرح معاً متشابكي الأيدي . كانا سلمى وفريد . .

ودوى التصفيق الحاد . . وغمر المسرح الضوء القوي ليكشف كل التفاصيل .

كان الاثنان فاتنين . . رائعين . . يليقان بكل تلك الشهرة والمجد . .

كانا مناسبين بعضهما لبعض تماماً . . كما لو أنهما خلقا ليكمل كل منهما الآخر .

واحتقن وجه ناصر وارتعشت شفتاه وهو يراقب سلمى وفريد ، اللذين راحا يستقبلان تحية الجماهير . .

في تلك اللحظة فقط أدرك عجزه . . وضآلته . . وبأن قدره كان من المستحيل أن يتلاقى بقدر سلمى . . حتى وإن جمعهما مكان واحد ورابطة الدم .

في تلك اللحظة تجسدت له الحقيقة . . فرأى انه من

المستحيل أن تكون سلمى له أبداً.

وأراد أن يغادر المكان.. أن يهرب من الحقيقة.. ولكنه لم يقو على الوقوف.. أو حتى على إبعاد بصره عن الاثنين، وبدأ العرض المدهش.

كانت هناك سلة تحمل اللاعبين لأعلى نقطة في السيرك.. وكانت أرجوحات اللعبة مذهبة وحبالها من لدائن الصلب الخفيفة التي يستحيل أن تنقطع..

وتأرجحت سلمى في رشاقة وتلاقت مع فريد على ارتفاع عشرات الأمتار.

بدا وكأنهما عاشقان.. كطيرين في السماء يسبحان بأجنحة غير مرئية ثم يتلاقيان في الفضاء في سموات عليا وفوق كل البشر.

تلاقت أصابعهما.. تشابكت.. في همس.. في نجوى.. في تلهف..

كأنهما انقطعا عن العالم كله.. ويمارسان في تلك اللحظة شعائر حب ظاهر.. عيونهما تفضحهما.. ولهفتهما تسبقهما.. وتلاقي أصابعهما يكشف سرهما وهما متأرجحان في الهواء وعلى رؤوس الأشهاد.

كان الاثنان عاشقين.. ولم يكن هناك مجال لأي

شك . .

ونكس ناصر بصره ليخفي دموعه . .

دموع إحساسه بفقد سلمى . . كان حتى اللحظة الأخيرة يتملكه أمل واهٍ أنها ستعود إليه . . وتعترف له بحبها . . وتسكب دموعها فوق يديه .

وقتها كان سيمنحها قلباً بلا ضغينة . . فقلبه لم يعرف لها غير الحب الخالص . .

في هذه اللحظة فقط أدرك وهمه . . بأنه يعيش في أحلام زائفة .

وأفاق على صوت شهقات الجماهير . . وتطلع بعينين مبللتين بالدموع لأعلى . . وشهق أيضاً .

شاهد سلمى فوق الحبل المشدود تلعب نفس اللعبة الخطرة . . لعبة الدراجة . . ولكنها تلك المرة كانت دراجة بهلوانية بعجلة واحدة . .

كأنها تتحدى الخطر وتقتنص كل السبل الممكنة لمواجهته . . وكأن الحياة لا تساوي عندها شيئاً . . وقد وقف فريد في نهاية الحبل يشجعها بابتسامة . . كأنها المكافأة المنتظرة .

وتحركت سلمى في رشاقة بالدراجة فوق الحبل . . إلى أن وصلت إلى النهاية . . فتلقفها فريد بابتسامة عريضة . ودوى تصفيق الأكف في لهب كالنار .

وصفق لها ناصر . . صفق لها برغم خوفه عليها . . صفق إعجاباً . . كانت بارعة . . فاتنة . . ساحرة . .

وأقبل المهرجون يؤدون فقرة طريفة . . واختفت سلمى من فوق المسرح .

وغادر ناصر مقعده . . يدفعه شوق لأن يراها عن قرب ويتحدث إليها . . كان في تلهف لأن يصافح أصابعها . . تتمسح عيناه بملامحها ، وتداعب أطراف أنفها وسهام عينيها .

ودله أحد العاملين إلى حجرتها . .

كانت حجرة فاخرة ، ليست كتلك في سيرك والدها . .

ووقف لحظة متردداً ثم طرق الباب . .

وانفتح الباب بعد لحظات وأطلت سلمى من خلفه .

وبدا كأنما فوجئت به . . وسرت برودة في ملامحها ونظرة مقطبة في عينيها .

وهمس ناصر يسألها : كيف حالك يا سلمى؟

لانت ملامحها قليلاً كأنما تبذل مجهوداً لتسيطر على مشاعرها وأجابته : ترى . . أنا في أحسن حال في هذا

المكان، وأشعر كأنني ولدت من جديد.

غمغم في صدق: أنت على حق.

وسألته: كيف حال أبي وأمي؟

لم ينطق بالصدق.. وهرب من عينيها كأنما خشي أن تفضحه نظراته، وقال في صوت مبحوح: إنهما في أحسن حال.. فقد زادت إيرادات السيرك في الفترة الأخيرة.

أدركت أنه يكذب.. كانت تعرف الحقيقة دون شك..

مرت لحظة صمت ثم سألته في لهفة: هل شاهدت فقرتي؟ ما رأيك فيها؟

أجابها في توتر: إنها رائعة ولكنها خطرة جداً.

تلاعبت فوق شفتيها ابتسامة تحد وقالت: أنا أعشق الألعاب الخطرة دائماً.. فبدون اقتحام الأخطار ستبقى حياتنا على وتيرة واحدة.

وأكملت وكأنها تعتذر له: لن أستطيع أن أدعوك إلى حجرتي حتى لا أثير الأقاويل حولي هنا.. ولكني سآتيك بعد دقائق قليلة في كافتريا السيرك بعد أن أبدل ملابسي.

أومأ برأسه موافقاً في صمت.

وتحرك صوب الكافيتريا المضاءة العامرة بالجمهور.. وطلب لنفسه مشروباً بارداً راح يحتسيه على مهل وآلاف

الأفكار تطن في رأسه.

كانت ثمة حقيقة واحدة تجلت لعينيه في هذا المكان.. وهي أن سلمى سعيدة بحياتها الجديدة.. سعيدة بنجاحها ونجوميتها وعملها الجديد.. وهو ما كان يستطيع أن يحقق لها كل أسباب السعادة تلك.. كان يكفيه أنها سعيدة.

وكان عليه أن ينسحب من حياتها في هدوء، ألا يحاول مضايقتها ثانية... فمن يحب يتمنى السعادة لمحبوبته... ولو كان ذلك على حساب سعادته... ولو كان على حساب قلبه.

ونهض في ألم.. مرت أكثر من ساعة ولم تأت سلمى.. وقرر أن يذهب إليها في حجرتها.. أن يعتذر لها بأنه لن يجيء إلى ذلك المكان ثانية وأنه سيخرج من حياتها إلى الأبد..

سيقول لها أنه لا يريد غير سعادتها.. وأنه يعرف أنه لن يستطيع أن يمنحها السعادة التي تريدها، ولذلك سيغادر حياتها إلى الأبد.. ولن يعود إليها ثانية.

وخطا نحو حجرتها.. وشاهد بابها المفتوح.

وقبل أن يطرق الباب سمع الحوار الدائر داخل الحجرة.

كان صوت رجل وسيم يقول في تلهف: سلمى.. حبيبتي.. إلام سننتظر أكثر من ذلك؟.. أنت تعرفين أنني لم

أعد أقوى على الابتعاد عنك ، وصار حبك يسري في دمي .

كان صوت فريد . .

الوحيد الذي سمحت له سلمى أن يدخل حجرتها دون أن تخشى لومة لائم . .

شاهده ناصر من فتحة الباب الضيقة يتحدث اليها في ذلة وخضوع .

وكانت هي واقفة باسمة شامخة . . رأسها مرفوع عالياً كأنها تحلق فوق العالم كله . .

وواصل فريد توسله قائلاً : لماذا لا تردين علي بشيء يا حبيبتي؟

فابتسمت سلمى ابتسامة عريضة كشفت عن صف أسنانها اللؤلؤي قائلة : هل يمكن أن تكون قد احببتني بمثل هذه السرعة خلال شهرين فقط كل هذا الحب؟

أدرك ناصر أنها تختبره . . كانت عيناها تشيان بحبها له . . وبأنها غارقة في حبه حتى أذنيها . . ولكن ذلك الغر الأحمق كان يبدو مدلَّهاً وعاجزاً عن رؤية مشاعرها الحقيقية ، فهمس يقول في توسل : أنت تعرفين أنني أحبك وأهيم بك . . فمن يستطيع أن يقترب من فتاة ساحرة مثلك ولا يصعقه جمالها ورقتها؟

وتهدج صوته وهو يواصل قائلاً : سلمى . . إنني أريد أن

أتزوجك فماذا تقولين؟

ولم يتوقف ناصر ليسمع ردها.

كان واثقا من ردها. . وما كان يتحمل أن يسمعه بأذنيه.

كان سيتعذب عمره كله لو سمعها وهي تقول لفريد أنها تحبه. . وأنها أيضاً تريد أن تتزوجه.

كان يريد أن يبتعد عنها ويخرج من حياتها دون أن يسمع تلك العبارة. . كأن نفس الكلمات سيترجمها قلبه بأنها تكرهه هو ولا تطيق حتى رؤيته. .

لا تطيق حتى أن تمنحه بضع لحظات تحدثه فيها. . أو ربما نسيت أمره تماماً وهو جالس ينتظرها في الكافتيريا. . ولاتسمح له بولوج حجرتها أو الاقتراب من عالمها. .

وهو الذي خاطر بحياته لأجلها وأنقذها من موت محقق. .

وهو الذي ما أسكن قلبه غيرها. . ولا لون مشاعره بغير طيف ألوانها.

وجر ساقيه يغادر المكان. . وتلقفه الليل والصمت والشوارع الخالية. . أراد أن يصرخ. . يبكي. . يشكو لإنسان ما. . أن يئن ويتألم. .

ولكن من كان على استعداد لسماع الشكوى والأنين؟

«زيارة ومواجهة»

اغلق سيرك المهرج الكهل أبوابه . . بعد أن غادرته سلمى منذ شهور طويلة ، فمن كان يمكن أن يأتي لمشاهدة مهرج لا يكاد يقوى على الوقوف على أقدامه ، ومروضة وحوش عجوز لا تملك غير بضعة كلاب هزيلة مريضة . . وشاب به أثر عرج خفيف ، ولا يجيد غير العزف على الناي؟

انصرف الناس عن السيرك لأن جوهرته ووردته الثمينة قد غادرته إلى الأبد . الكثيرون ذهبوا إلى السيرك الآخر الكبير ، ودفعوا جنيهات كثيرة ليشاهدوا الحسناء الفاتنة أثناء تقديمها ألعابها الخطرة . .

ولم يعد شخص واحد يتذكر السيرك القديم . . الذي أطفئت أنواره القليلة . . شيء وحيد كان يشي بأنه لا تزال ثمة حياه داخل المكان الميت .

كـان ذلك هو نبـاح الكلاب التي أصـابهـا الجـوع بما يشـبـه السعار. . وقالت نرجس وهي تراقب كلابها في ألم وحسرة : إننا لا نجـد مـا نكاد نسـد به رمـقنـا. . فـمن أين سنأتـي لتلك الكلاب بطعام؟

فقال الزوج الكهـل : إذن فمن الأفـضل أن نطلق سـراحهـا رحمة بها لتبحث لها عن طعام في أي مكان آخر.

ندفع يفـتح باب أقـفـاص الكلاب التـي تدافـعت هاربة منه وهي تطلق نباحاً جنونياً ابتهاجاً بحريتها. .

وصـرخت المرأة العـجـوز في لوعـة : كـيف أطلقت سـراح الكلاب. . وبماذا سنقدم عروضنا بعد ذلك؟

فـأجـابهـا زوجـهـا في مـرارة قـائلاً : أي عـروض تلك التي تتـحدثين عنهـا؟. انظري حولك لتـري الخراب. لم يعـد هناك سيرك بل أطلال تنعق عليها البوم.

ومسح دموعه وهـو يضيف : منذ غادرتنا سلمى و كل شيء حـولـنا قـد صــار مـر المذاق ولاطـعم له. حـيـاتنا تحـولت إلى موت. . نـحن موتى بالرغم من أننا أحـياء. . أطفـئت الأنوار وخفـتت الأصوات وضاعت البهـجة. . لم يتبق لنا غـير انتظار الموت. فلماذا تأخر كل ذلك الوقت عنا؟

قـالت نرجـس في ألم : كـفى. . كـفـى. . إن سلمى هي

ابنتنا ، وكما ربيناها طفلة صغيرة وكنا لها نعم الأب والأم ، لذلك فمن حقنا أن تعولنا في شيخوختنا وعجزنا .

واستدارت وهي تضيف في غضب : سأذهب إليها هذه الناكرة للجميل وسأخبرها بحالنا و . .

ولكن الأب الكهل انتفض في غضب حاد قائلاً : لا . . لن تذهبي إلى أي مكان . . ولن تخبريها بشيء . .

وبرقت عيناه في وميض حاد مواصلاً : إننا لن نتسول طعامنا ولو كان من ابنتنا . . إنها قد نسيتنا ولم تعد تذكر أن لها أباً أو أماً . . ومن الأكرم لنا أن نموت جوعاً ، على أن نتسول طعامنا .

أقبل ناصر في صمت . . طرقت العبارة الأخيرة اذنيه فآلمته . .

كان يعرف كيف يعتز عمه بكرامته . . عاش طوال عمره مهرجاً في سيرك ، عمله هو إضحاك الناس . . ولكنه أبداً لم يفرط في كرامته ولا مدَّ يده لإنسان . .

ووقف أمام عمه وزوجته في ألم كأنه المذنب فيما حدث . . كأنما كان الخطأ خطأه . .

أسابيع طويلة مرت وهو يبحث عن عمل دون جدوى . .

عاهته وقلة خبرته بأي عمل منعته من أن يجد مهنة في أي مكان . . فمن الذي يريد تشغيل شاب ذي عاهة . . كان لاعب سيرك سابقاً؟

اقترب ناصر من عمه، ربت فوق كتفه مشفقاً وقال: لا تخشَ شيئاً يا عمي . . إن الله جل جلاله يرزق الطيور في أعشاشها، فهل سينسى أفضل مخلوقاته وأكرمها؟

وأضاف في همس: سوف أبيع تلك الحلى القليلة التي ورثتها عن أمي وسنعيش بثمنها إلى أن أعثر على عمل مناسب .

ولكن المهرج الكهل هز رأسه في رفض قائلاً: هذا مستحيل . . إنك لن تبيع شيئاً . . هذه الحلى عشت أنت عمرك كله تحلم بأن تهبها لمن تتزوجها لتكون شبكتك لها . . وأنا لن أسمح لنفسي بأن أمد يدي إليها أبداً .

ـ ولكن يا عمي . .

ـ لا فائدة يا ولدي . . لا تتعب نفسك .

وأدار وجهه إلى الناحية الاخرى وتمتم في أسى قائلاً: أنت لست مديناً بشيء لنا يا ولدي . . لقد فعلت كل ما في وسعك لأجلنا . . وأنت لست مطالباً بأن ترد لنا شيئاً . . فاذهب يا

ولدي إلى الحياة الواسعة وابدأ حياتك من جديد بعيداً عنا . .
نحن في مركب غارقة وعلى من يجد أي فرصة للنجاة أن يستغلها .

ـ مستحيل يا عمي . . مستحيل أن أتركك أبداً .

ـ اذهب يا ولدي . . اذهب ودعنا نمت في صمت دون أن يشعر بنا إنسان ، ولا تربط مصيرك بنا .

ـ لا تتحدث عن الموت ثانية يا عمي .

واغرورقت عينا ناصر بالدموع ، واحتضن عمه يقبل رأسه وكفيه وهو يقول منتحباً : إنني لم أعرف لنفسي أباً غيرك . . فكيف تطالبني أن أتركك . . إنك ربيتني وأنا طفل لا أكاد أعي من العالم شيئاً . . إنني لا أكاد أتذكر وجه والدي الحقيقي ولا والدتي . . ولكنني أتذكر كيف كنت يا عمي تخفف عني أوجاعي . . تطعمني بيدك وتسقيني بكفك . . تسهر أنت وزوجتك على مرضي . . تشقيان لشقائي وتسعدان لسعادتي . . كنتما أنتما نعم الأب والأم . . فكيف تريدني أن اتركما وانتما وحيدان؟

غمغم الكهل في ألم : آه يا ولدي .

واحتضن المهرج ابن أخيه وقد سالت من عينيه دموع ساخنة

ملتهبة . . وغمغم وهو يتأمل ملامح ناصر : كنت أخشى يوماً أن تتخلى عنا بعد أن يشتد عودك . . وكنت سأعذرك وأمنحك صفحي لو فعلت ذلك . . ولكني لم أتخيل أبداً . . أن سلمى هي التي ستتخلى عنا .

وتحرك المهرج الكهل في ألم وقد تيبست دموعه .

كان الرجل الذي أضحك الآلاف غير قادر على أن يخفي دموعه وأحزانه هذه المرة . . ولا أن يخفف من آلامه وجراحه أو يسامح القدر القاسي .

وامتدت يدا ناصر في حجرته لتخرج اللفافة الصغيرة داخل المنديل المزركش الذي احتفظ به سنوات طويلة . .

عشرون عاماً أو أكثر وهو يحتفظ بتلك الحلى الذهبية داخل المنديل المزركش . . حلى أمه . . ومنديلها . بعد أن شيعوا والدته وأباه لقبرهما . . أعطته زوجة عمه المنديل المزركش المعقود بالحلى وقالت له وهي تمسح دموعها : هذه حلى أمك . . فاحتفظ بها يا ولدي إكراماً لذكراها . . وامنحها للفتاة التي تعطيك من الحنان والحب ما كانت أمك تهبه لك .

واحتفظ بالمنديل المزركش والحلى . . وظل حلمه يكبر في انه يوماً ما سيهب كل تلك الأشياء لسلمى . . ظل يحلم بأن

فتاة غيرها لن تهبه حنان أمه وحبها . .

ولكن سلمى ذهبت بلا رجعة . . وبقي المنديل والحلي . .

وكان لا بد من الحصول على طعام للكهل وزوجته . . لأبيه وأمه . .

ولم يكن هناك حل آخر وإن رفضه عمه . .

وغادر المكان وهو قابض على المنديل المزركش . . وعاد بعد ساعة وفي جيبه بضعة مئات من الجنيهات ثمناً للحلي . .

ولكن وقبل أن يخطو إلى داخل خيمة السيرك عبر بابها المتهدم . . توقفت سيارة أنيقة جديدة وغادرتها قائدتها الجميلة الفاتنة في ملابس حريرية ثمينة . . وعقد من الماس يزين عنقها البديع . . كانت سلمى .

ووقف الاثنان لحظة متواجهين . . دون أن ينطق أي منهما . . وأخيراً ارتسمت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها . . ابتسامة استهانة وهي تقول له : كيف حالك؟

أجابها في اقتضاب : كما ترين .

تطلعت حولها تتفحص المكان ثم هزت رأسها في أسى قائلة: هذا ما توقعته . . تهدم المكان وأصابه الخراب بعد أن تركته .

بدا وكأنها تلوم شخصاً آخر . . ثم خطت إلى الداخل . .

وسمع صرخة المرأة العجوز في شوق جارف وهي تقول : سلمى . . سلمى . . ابنتي . .

وشاهدهما تتعانقان . وقالت سلمى : كيف حالك يا أمي؟

انفجرت الأم باكية وقالت : أبعد كل هذه الشهور تذكرت أمك يا سلمى . . كيف هان عليك تركنا كل هذه المدة حتى تسألي عنا؟

أجابتها سلمى في ارتباك : لقد انشغلت بعملي الجديد والتدريبات العنيفة . . أنت تعرفين يا أمي كيف أن عملنا شاق جداً .

قالت الأم في صوت أقرب إلى الهمس وهي تنهنه : إننا يا ابنتي بعد أن غادرتنا . . صرنا لا نكاد نجد ثمن طعامنا .

استدارت سلمى في غضب حاد عنيف إلى ناصر قائلة : كان عليك أن تخبرني بذلك لأرسل لوالدي بعض المال . . بدلاً من أن تقبع بجوارهما بلا عمل وأنت غير قادر على الإنفاق عليهما .

وأضافت في سخرية أشد : لو عرفت أنك بلا عمل لأرسلت إليك منذ زمن ، فنحن في السيرك في حاجة إلى عمال لبيع التذاكر ، أو لإرشاد الجمهور إلى مقاعدهم ، وهو

عمل أظن أنه ليس في حاجة إلى موهبة خاصة لأدائه.
انفجر غضب ناصر جامحاً.. في تلك اللحظة أدرك كم تغيرت.. كم التهمتها أنانيتها.. وكانت على استعداد لأن تتهم العالم كله ولا تلوم نفسها.
ارتعدت شفتاه وهو يقول لها: من قال أنني بلا عمل وغير قادر على الإنفاق على والدي؟
غمغمت في استنكار: والديك؟
أبرز ناصر النقود الكثيرة من جيبه قائلاً: لقد كانت أزمة طارئة وقد حلت، ومن الغد سأستلم عملي الجديد، وهو مرتب بضعة أشهر قد قبضته مقدماً!
حدقت فيه سلمى بدهشة..
أدركت أنه يكذب.. وهو لم يكن يجيد الكذب أبداً.. وعيناه ما اعتادتا أن تخفي الحقيقة أبداً.. كان بالنسبة لها صفحة ناصعة لا تغش أو تخدع..
ما أدهشها هو كيف حصل على كل هذا المال.. ولكن سرعان ما طردت ذلك التساؤل والتفتت إلى أمها وقد أشرق وجهها قائلة: منذ الآن لا تخشيا شيئاً يا أمي أنت وأبي.. فسوف أمنحكما من المال ما تريدان وأكثر.. وقد جئتكما

بيعض الملابس الجديدة الفاخرة .

وأضافت وعيناها تبرقان بشهوة الحياة : وسوف تحضران بهذه الملابس حفل خطبتي إلى زميلي فريد الذي يشاركني فقرتي في السيرك .

وهتف صوت واهن ممزق من الخلف في ألم : والآن وقد أدركت سر حضورك!

كان هو الأب . . وكان واقفاً على مقربة وقد سمع كل شيء . . وواصل في ألم أشد قائلاً : لقد جئت عندما احتجت لنا . . احتجت إلى أب وأم يحضران حفل خطبتك أمام الناس . . فأتيت لنا ببعض الملابس الجديدة التي ما كنت لتفكري في شرائها لنا لولا حاجتك إلينا أولاً .

غمغمت سلمى في اضطراب : أبي . . إنني . .

قاطعها الأب في ألم : لا تقولي شيئاً يا ابنتي . . فلم يعد هناك ما يقال . . أما بخصوص تلك الملابس فنحن لم نتعود عليها وهي لن تليق بنا . . وليس ثمة داع لحضورنا حفل خطوبتك . . ومن يسألك عن أبيك وأمك فقولي له إنهما ماتا . . وإنهما لم يعد لهما وجود حتى لا تضطري للتضحية ولو بالقليل في سبيلهما .

واستدار الأب الكهل يتحرك في بطء عائداً إلى حجرته وقد

أعطى ابنته ظهره . . ووقفت سلمى مشدوهة غاضبة كأنها لا تصدق ما سمعته من أبيها .

وانسحبت الأم في صمت خلف زوجها العليل بعد أن ألقت على ابنتها نظرة حزينة مليئة بالأوجاع .

وبقي ناصر وسلمى في نظرة طويلة .

كان في عينيه هدوء وسكينة . . وكان في وجهها غضب وحنق وثورة . .

كأنها تتهمه بشيء ما . . كأنه هو السبب في كل ما حدث .

واستدارت في حدة واندفعت إلى سيارتها . . ثم انطلقت بها وعجلاتها تصر فوق الطريق في صراخ حاد . .

وأغمض ناصر عينيه في ألم . .

ففي تلك اللحظة تأكد أنه كان عليه أن يبيع الحلى الذهبية التي ورثها عن أمه، منذ زمن طويل .

* * *

«فرصة عمل»

يقول الذين حضروا حفل الخطبة أنه لم يكن له مثيل في ابتكاره وروعته.

أقيم الحفل في السيرك ذاته.. وعلقت الأنوار والزينات والأعلام في كل مكان حول السيرك.. وطبعت صورة العروسين على ظهر تذاكر الدخول.

وتم حفل الخطبة أثناء عروض السيرك.

فعندما حان وقت تقديم فقرة سلمى وفريد.. اصطف عشرات من الشبان والشابات العاملين في السيرك بملابس مذهبة في صفين رافعين البيارق.

ولكن العروسين لم يأتيا من الباب المفتوح الذي وقف الجميع ينتظران دخولهما منه.. بل انبعثت بقعة من الضوء إلى سقف السيرك.. وظهر العروسان وهما يتأرجحان فوق عقلة

الأرجوحة بملابس السيرك، ثم قفز الاثنان، وبحركة بارعة، ليسقطا داخل شبكة صغيرة أقيمت خصيصاً لذلك . .

ثم خطا العروسان إلى مقعدين مذهبين وسط تصفيق المشاهدين الحاد.

وأخرج فريد من جيبه علبة من القطيفة يلتمع فيها خاتم من الماس الثمين ووضعه في اصبع يد سلمى اليمنى.

وتعالى التصفيق ولمعت فلاشات كاميرات التصوير لأصحاب المجلات الفنية التي لم ينسَ سمير بك أن يدعوهم لينقلوا أخبار الحفل إلى قرائهم.

وبعد أن وضعت سلمى خاتم الخطبة في أصبعها عاودت مع فريد تقديم فقرتهما الخطرة. . وأنهياها بأن تسلقا قمة خيمة السيرك وسارا فوق الحبال ليغادرا السيرك من أعلى ويختفيا عن الأنظار.

وصار ذلك الحفل الفريد حديث كل من شاهده لفترة طويلة . .

وشاهد ناصر صور الحفل منشورة في أكثر من مجلة فنية . . وقرأ التفاصيل المثيرة . . ولمح السعادة الطاغية في عيني الخطيبين في صورهما المنشورة.

وامضى بعدها فترة حزن، لا رغبة له في طعام أو شراب. . وقد تحولت الدنيا حوله إلى سراب مؤلم. .

في تلك اللحظة فقط أدرك أنه لا يزال يحب سلمى. .

برغم تنكرها له وجحودها. . وبرغم قلبها الذي مال لغيره. . برغم خطيبها الوسيم الأنيق. . برغم الحلى الذهبية التي باعها لينفق منها على عمه وزوجته.

برغم ذلك كله لا يزال يحبها. .

يحبها لأن أمر القلوب عجيب. . ولأن سر الحب لا يتقرر بالعقل. . نحن لا نحب بعقولنا فنرفض أن نحب شخصاً ما لأنه أساء إلينا أو قسا علينا. . أو نحب آخر لأن به بعض الصفات الجميلة.

لم يكن له حيلة في حبه لسلمى.

ولم يكن هناك دواء يمكن أن ينسيه هذا الحب. . كان في حاجة إلى شيء يشغله عن التفكير في سلمى. . في حاجة إلى عمل فقد أوشكت النقود التي باع بها الحلى أن تنفد ولن يجد شيئاً يبيعه بعد ذلك.

وكان مستعداً ليعمل حتى حمالاً أو بائعاً في أي مكان لينفق على عمه الكهل وزوجته، ولكن عاهة قدمه كانت تسد كل الأبواب في وجهه.

وذات يوم كان عائداً بعد بحث طويل عن عمل، وقد أوقفه صوت نداء جاءه من الخلف يدعوه باسمه. والتفت فشاهد زميلاً قديماً له كان يعمل في سيرك عمه قبل أن يتركه منذ سنوات.

وتعانق الاثنان..

وتساءل ناصر لاهثاً وهو يشاهد معالم الأناقة البادية على صديقه القديم: كيف حالك يا منعم.. إنني أراك في أحسن حال.

فقال منعم ضاحكاً: يا عزيزي.. إن حالي لم يتحسن إلا عندما تركت العمل في السيرك وصرت مطرباً أقود فرقة موسيقية من عشرين عازفاً.

غمغم ناصر في دهشة: ولكن لم يكن لك أي علاقة بالغناء.. كما أن صوتك..

وصمت ناصر تحرجاً فقال منعم ضاحكاً: لماذا لم تكمل.. إن صوتي ليس جيداً والجميع يعرفون ذلك، ولكن الحظ لا يتعرف بهذا لحسن الحظ.. ولهذا تراني مطلوباً للغناء في ملاهٍ عديدة وحفلات لا حصر لها.

وحدق في ناصر مقطباً وهو يتساءل: وأنت كيف

حالك . . ألا تزال تعمل في سيرك عمك؟

فأخبره ناصر بالحقيقة كاملة . . وقال منعم في أسى : لم أكن أتخيل للحظة أن سلمى كان يمكن أن تفعل ذلك بك وبوالديها .

ـ إنه الطموح الذي يجعل الإنسان ينسى كل ما كانت عليه سابقاً .

ربت منعم على كتف ناصر قائلاً وابتسامة تعلو وجهه : لا تهتم يا صديقي . . إن مشكلتك محلولة . . أما زلت تجيد ذلك العزف الساحر على الناي كما كنت سابقاً؟

قال ناصر في حزن : يبدو أن هذا هو الشيء الوحيد الذي أجيده للأسف الشديد .

ـ ولماذا للأسف الشديد يا صديقي . . إن موهبتك هذه قد تأتي لك بالآلاف .

ـ ماذا تقصد؟

ـ هل تعمل معي في فرقتي عازفاً للناي؟

حدق فيه ناصر بدهشة وكأنه لا يصدق ما سمعه للوهلة الأولى . . وأكمل منعم في جدية : إنني أثناء غنائي أحتاج إلى بعض فترات راحة ما بين كل فقرة وأخرى أحاول شغلها

بتقديم فقرات موسيقية . . ولكنني أعتقد أن وجود عازف ممتاز للناي خلال هذه الفقرات سيجذب الانتباه أكثر . . فيمكنك أن تشاركني بالعزف أثناء غنائي . . ما رأيك؟

هتف ناصر : وكيف أرفض؟ . إنك بذلك حللت مشاكل كثيرة في دنياي ومنحتني أملاً جديداً في الحياة .

ربت منعم على كتف صديقه وقال بلهجة الخبير :

ـ إن الحياة فرصة يا عزيزي . . فانتهزها .

ومد يده بكارت مذهب وهو يضيف : هذا هو عنوان الملهى الليلي الذي افتتحته منذ أيام قليلة . . وسيسرني أن أراك هناك في أسرع وقت .

ولوح منعم لناصر ثم اتجه إلى سيارة قريبة حديثة وصعد اليها . . وبقي ناصر مكانه يحدق في البطاقة المذهبة في ذهول . . وغمغم كأنه يحدث نفسه : ملهى ليلي؟

وتنازعته رغبتان في الذهاب . . أو الرفض . وصوت منعم يدوي في آذانه بأن الحياة فرصة . . ولكن كان ذلك هو منطق سلمى أيضاً . . كانت تبحث عن فرصتها مهما كان الثمن . . داست الآخرين في طريقها ، أو سلبت منهم الحياة ذاتها .

ولكنه ما كان سيضير أحداً لو انتهز تلك الفرصة . . ولن يطأ أحداً في طريقه .

وأخرجته من حيرته الجنيهات القليلة التي تبقت معه من ثمن الحلى . . ولا تكاد تكفي ثمن العشاء .

وهكذا ذهب إلى الملهى الليلي في الليلة التالية .

وتسلم عمله في الليلة نفسها . . وارتاح عندما وجد الملهى محترماً لا يقدم أي خمور ولا يسمح برقصات . . وكانت فقراته كلها محترمة لا يخجل منها إي إنسان .

وأدرك سر إصرار منعم في أن يجعله يصاحبه بالناي . . كان صوته ضعيفاً نشازاً ، وكان صوت الناي العذب الرقيق يخطف أسماع الحاضرين فلا ينتبهون إلى خشونة صوت المطرب .

وكانت أنغام ناصر عذبة شجية . . حزينة تكاد تثير الدمع من العيون . . صار له عشاق ومعجبون من الحاضرين خلال أيام قليلة ، حتى أن منعم قال له ضاحكاً : لقد أوشكت أن تنافسني في عملي .

وامتلأت يدي ناصر بالمال .

كانت هناك حفلات زواج ونجاح وحفلات عامة . . هذا غير حفلات الملهى المسائية . .

ولم يعد ناصر في حاجة إلى المال ، وأول مبلغ قبضه هرع

به إلى الصائغ الذي باع له حلى والدته الذهبية، وقال له في لهفة: إنني أريد استرداد الحلى التي بعتها لك، وسأدفع فيها ما تريد.

فتأمله الصائغ الشره بنظرة ماكرة وقال له: كنت متأكداً أنك ستعود لتستعيدها فقد كانت عيناك وأنت تبيعها لي كما لو كنت تبيع جزءاً من جسدك.. فما رأيك لو استعدت حلى والدتك بضعف المبلغ الذي قبضته؟

فوافق ناصر دون تردد.. وعد بالحلى وهو يحتضنها كأنما استعاد جزءاً من ذاته الضائعة..

وبعد وقت تجمع له مبلغ من المال. وكان أول ما فكر فيه أن قام باستئجار شقة صغيرة مريحة ليقيم فيها مع عمه وزوجته.

وعندما وقف نهاراً وهو يشرف على تسليم السيرك المتهالك إلى المقاول الذي اشتراه بثمن بخس، انحدرت دموع المهرج العجوز وقال في صوت هامس: إنني أشعر اليوم كأن روحي قد انتزعت مني.

فربت ناصر فوق كتفه مشفقاً..

كان يدرك وطأة الأمر على الكهل وذكريات عمره كله

تتحول إلى بضع خرق قديمة وحبال وألواح معدنية . . وعندما عاد الثلاثة إلى المنزل كان الكهل العجوز قد أصيب بالحمى وقد راح يجوب حجرات الشقة كأنه يبحث عن شيء ما . . وزوجته تحاول تهدئته دون فائدة .

وأدرك ناصر محنة عمه ، فقال في اشفاق : ما رأيك لو عدت يا عمي الى ممارسة عملك ثانية؟

فالتفت إليه المهرج الكهل في دهشة وحيرة ، وواصل ناصر قائلاً : يمكنني أن أقنع منعم بأن يجعلك تقدم فقرة للألعاب السحرية وألعاب المهرجين في الملهى .

ولكن العجوز هز رأسه في أسى مرير قائلاً : لقد كان هذا زمناً وقد انقضى . . فقد صرت شيخاً عجوزاً لا نفع له ولا فائدة . . وبدلاً من أن أثير ضحكات المشاهدين بما أقدمه ، فسأثير ضحكاتهم علي سخرية واستهزاء .

وعضَّ شفتيه في قسوة وألم مضيفاً : إن سلمى هي السبب في ذلك كله . . ولن أسامحها أبداً .

* * *

«اعتراف»

وسقط الأب مريضاً يهذي . . قاوم طويلاً النار المتقدة في قلبه دون أن يطفئها شيء ما . . صار يتخيلها جالسة بجواره . . تمسح عنه دموعه وتجفف له عرقه المتقد فوق جبهته . .

كان يناجيها . . يناديها . . يدعوها بألقاب كثيرة . . يا طفلتي . . يا دنيتي . . يا غاليتي . . قسا قلبها عليه وتحجر ولكن قلبه كان ينفطر كل لحظة تلهفاً لرؤيتها .

تمنى لو أنها لحظة رفضه دعوتها لحضور حفل خطبتها . . لو انها استعطفته قليلاً . . لو طلبت صفحه . . لو اعترفت بخطئها . . لو همست بكلمة بابا . . لكنها لم تسترجه . لم تستعطفه . . لم ترطب قلبه ولو بكلمة واحدة .

عمره كله حلم أن يشاهدها في فستان زفافها

وعرسها. يراها عروساً جميلة تغار منها كل الحسناوات. .
يتباهى أمام الناس جميعها بأنه والدها.

ولكنها لحظة أن منحته تلك الفرصة، صبغتها بإحساس عميق بالمهانة. . وهو ما كان يقبل المهانة من أي إنسان كان. . فما البال لو جاءت من ابنته الوحيدة؟

سقط مريضاً يهذي باسمها.

وجاء الطبيب وبعد أن فحصه قال: إنه يعاني من صدمة عصبية وتلزمه الراحة التامة.

وغادرهم الطبيب بعد أن كتب قائمة بالأدوية المطلوبة. . والمهرج الكهل لا يدري شيئاً حوله، وشفتاه تتمتمان باسم ابنته.

وقالت الأم باكية: ماذا أفعل يا ربي. . ما العمل الآن؟

فهب ناصر واقفاً وهو يقول: سوف أذهب لسلمى وأخبرها أن والدها مريض جداً.

وأضاف في حسم: وسأجبرها على المجيء معي.

قالت الأم متألمة: إنها قد تنتهز الفرصة وتؤلمك بكلمات جارحة. . فهي تظن أنك أنت الذي جعلت قلبنا يقسو عليها.

قال في تسامح: سأتحمل منها أي شي. .

وغادر المكان بسرعة . . واتجه إلى مكان السيرك . إندفع إلى الداخل يسأل عنها . . وقابله سمير بك باسماً وقال له : إن سلمى ليست موجودة هنا .

سأله ناصر متلهفاً : وأين ذهبت؟

رفع المدير حاجبيه في دهشة وهو يقول له : ألم تعرف؟ هذا غريب . . ظننت أنكم أول من أخبرتكم بالأمر .

دق قلب ناصر بعنف بين ضلوعه ، وتساءل في توتر وقلق: هل أصابها مكروه؟

ـ بالعكس . . إنها الآن تحقق أحلامها دفعة واحدة . . حتى ما لم يخطر ببالها للحظة واحدة .

لم ينطق ناصر بشيء ولم يدرك على الفور ما قصده مدير السيرك الذي واصل قائلاً : لقد وقعت سلمى بالأمس أول عقد بطولة سينمائية لها . . واليوم هو أول أيام التصوير .

جمد ناصر مكانه . . تسارعت أنفاسه . . ها هي الدنيا تقبل على سلمى المحبوبة وتمنحها أكثر مما رغبت يوماً ما . . كأنها تكافئها ، وهناك أب مريض يئن بالألم وأوجاع الجحود .

وواصل المدير : لقد صارت سلمى نجمة ولن يستطيع أحد أن يوقف مسيرتها . . فقد شاهدها أحد المخرجين أثناء العرض

فأعجب بها بشدة . . وأقسم على أن تكون نجمة كل أفلامه القادمة . . وليست هذه غير البداية .

نكس ناصر رأسه . . أحس بطنين يداهمه . . همس في صوت مبحوح : وأين أجدها؟

أجابه المدير وهو يزفر دخان سيجارته : في استوديو الأهرام .

واستقل ناصر تاكسياً إلى مكان الاستوديو . .

وكانت هي واقفة أمام الكاميرا وابتسامتها قد اتسعت لتشمل العالم كله . . وبجوارها فريد يتعثر في إلقاء بضع عبارات قليلة أمام الكاميرا .

وغمغم المخرج الشهير في غيظ : هذا الأحمق الذي لا يستطيع أن ينطق بعبارة سليمة وأجبرنا على إعادة المشهد عدة مرات . . لولا إصرار سلمى عليه لطردته منذ ساعات .

وعلا صياحه في مساعديه : ستوب . . أوقفوا التصوير .

واندفع صوب فريد بعينين محتقنتين وهو يرشده للمرة العاشرة لكيفية أداء المشهد دون تعثر . . وقد صوّبت سلمى نظرة غاضبة للمخرج .

كانت عيناها تشيان أنها هي التي فرضت خطيبها على

المخرج رغماً عنه. . واشترطت أن يقوم أمامها ببطولة الفيلم وإلا أقلعت عن ذلك، فأذعن لها مجبراً.

وكان في عينيها حب وعشق لا حد لهما. . ونظراتها المصوبة إلى فريد تذوب فيه هياماً. . وأصابعها المشتبكة بأصابعه تستقر في سكينة واطمئنان.

كانت عاشقة وإن حاولت أن تظهر بمظهر اللامبالية. .

عيناها تفضحانها تماماً. . وكان ناصر قادراً على قراءة مشاعرها في عينيها. . ومجرد بقائه في ذلك المكان كان مؤلماً بالنسبة له. .

مجرد أن يشعر أن كفها تستقر في كف رجل آخر. . عيناها تلتحمان بعينيه. . أنفاسها تتهدج باسمه.

كان الأمر كوخزات الإبر في جسده، ولكن عليه أن يتحمل لأجل الرجل العجوز المريض.

ليس أقسى علينا من أن تفرض علينا الظروف وجودنا. . لنرى الحبيب يمارس لغة الحب. . مع شخص آخر غيرنا.

تقدم ناصر منها وهو يضبط مشاعره ويحاول إخفاء مظاهر الألم والاضطراب. . بدا وكأن سلمى فوجئت به فحدجته بنظرة مقطبة غير مرحبة.

قبل أن يفسر شيئاً بادرته في سخرية قائلة : لا أعتقد أنني أرسلت إليك دعوة لحضور بداية تصوير أول أفلامي .

كانت لهجتها قاسية . . ورمقه فريد بنظرة مستهينة وتلاعبت فوق شفتيه ابتسامة ساخرة أوضحت أنه يعرف عنه كل شيء . .

باحت له سلمى بحبه لها . . وكيف أذلته في سبيل ذلك . . وحولت مشاعره وآلامه ونبضه إلى قصة مسلية أهرقتها تحت قدمي الحبيب .

بدا في عيني فريد الاستهانة كأنه يدرك ضآلة منافسه المهزوم . . ولكن ناصر بقي واقفاً دون تراجع ودون أن ينطق بشيء ، كأنه يوجه لفريد رسالة بأن ما يريد قوله يخص سلمى وحدها . . فقال فريد لها دون أن يعير ناصر التفاتاً : سأذهب لأستريح قليلاً وأستعد للمشهد حتى تنتهي من زوارك .

وأضاف بسخرية أقصى : زوارك المهمين .

وغاب وسط جموع الواقفين . . وحدق ناصر في سلمى متألماً . . فما كان يتخيل أنها ستسمح لرجل غريب أن يهينه بذلك القدر . . وهو الذي كان أكثر من أخ لها يوماً من الأيام .

وسألته سلمى في خشونة : ماذا تريد؟
فأجابها في ألم : والدك مريض بشدة ويرغب في رؤيتك .
تقلصت مشاعرها . . لم يظهر عليها أنها تألمت أو أن الخبر صدمها . . بدت كجبل من ثلج أو صخر . . قالت في قسوة: الآن تذكر أبي أن له ابنة عندما احتاج إليها في مرضه .
أغضب ناصر ما قالته من بين أسنانه : إنه ليس في حاجة إليك لعلاج أو مال . . فقط هو يرغب في رؤيتك ويهذي باسمك .
ورمقها في تحد وغضب مضيفاً : أنا أتيت له بطبيب وكل ما يحتاج له . . ولكن احتياجه الحقيقي هو إليك أنت فقط .
نكست سلمى رأسها . . ترقرقت الأحزان في عينيها ، لأول مرة يلمح تلك المشاعر في عينيها كأنها انفجرت من نبع خفي . . ذابت قسوتها وجمودها . . وهمست في ألم تسأله : منذ متى وهو مريض؟
أشفق عليها وأجابها : منذ تخلصنا من خيمة السيرك الكبيرة وبعناها مع البقايا ، سقط عليلاً مريضاً ، وكأننا تخلصنا من آخر سبب يربطه بالحياة .
غمغمت في أسى : كنت أعرف أنني بتركي للسيرك سوف

يتهدم كل شيء ويحل به الخراب . . كنت أخشى مما حدث أن يحدث . . ولكن لم يكن أمامي طريق آخر .

وشاهد الدموع في عينيها . . لأول مرة يشاهد دموعها منذ زمن طويل . . ظن أن قسوتها جعلت كل آبار دموعها تجف . . ولكنه اكتشف أن سلمى الرقيقة الحنونة لا تزال تحيا .

قال في شجن : هل تبكين؟

قالت منتحبة : لا تظنني قاسية إلى هذا الحد . . ولكني كنت مضطرة لأن أفعل ما فعلته . . كان بقائي مع والدي هو حكم بإعدامي . . بأن أصبح مكبلة وأسيرة ذلك السيرك الصغير المتواضع الذي لا يرتاده غير الأطفال ولا يكاد يفي بنفقاته . . وكنت في حاجة إلى مكان أكبر وأكثر اتساعاً . . كنت أتشوق إلى أن اكسر هذه القضبان . . أن أحقق أحلامي وذاتي . . أن أختار لي طريقاً مختلفاً يبدأ بي وينتهي بي أيضاً . . كنت أريد أن أجرب الحياة الحقيقية .

واجهته بعينين تفيضان بدموع كاللؤلؤ النادر . . لأول مرة بدا لها ما فعلته منطقياً ويحمل بعض التبرير . . كانت تدافع عن حياتها وعن أسباب وجودها ، كانت تبحث لنفسها عن طريق أفضل . . والآخرون ارادوا تكبيلها بقيودهم ليجعلوها

تزحف معهم فوق الأرض بدلاً من أن تحلق في سماء متسعة .

همست تسأله : هل فهمتني يا ناصر؟

غمغم في ألم : إنني أفهم ما تقولين . . وأعذرك في كل ما فعلته .

ربتت على كفه في حنان هامسة : أنا لا أريدك أن تغضب مني أو تكرهني . . أعرف ان قلبك عامر بالحب ، وأنك ستعوض أبي وأمي عن غيابي وأنك ستعاملهما كابن بار . . وهذا هو ما خفف عني كثيراً .

وحاصرته بنظراتها . . كانت تبدو كما لو أنها تدلي باعتراف ما . . تريد أن تتخلص من ذنب ثقيل ودين لا يطاق . .

همست في صوت مبحوح : أعرف أنني جرحت مشاعرك وأدميت قلبك لحظة أن أخترت رجلاً غيرك لترتبط به حياتي . . واعرف كم كنت تحبني ولا تزال . . عيناك تقولان ذلك ولا يمكنهما أن تخدعاني . . ولا أنكر أنني كنت بقربك أشعر بالأمان . . ولكني كنت أراه أمان الأخ الأكبر الذي يمنحه لأخته الصغرى . . أمان الأقوى للأضعف . . حتى لحظة أن أنقذت حياتي تأكد لي أنك الأمان بالنسبة لي . . ربما

ضايقني ذلك لأنني أردت كسر هذا الطوق ففشلت، ولهذا غضبت منك في الوقت االذي كان يجب أن أشكرك فيه على إنقاذك حياتي.

همس في صوت مبحوح: أنا لم أكن أنتظر شكراً.

ـ أنت إنسان نبيل لأنك خاطرت بحياتك.. وكنت أعرف أنك فعلت ذلك لأنك تحبني حباً عظيماً.. ولكنني أبداً لم أكن أستطيع أن أمنحك حبي.. فقلبي ليس ملكاً لي.. إن مشاعرنا ليست بأيدينا فسامحني يا ناصر.. لو كان قلبي ملكاً لي لوهبته لك عن طيب خاطر.. ولكن من منا يملك أمر قلبه؟

أراد أن يبكي.. أن يتألم.. أن يصرخ..

كلماتها كانت كجراب دامية تؤكد له، ما عاش يحاول نسيانه وقتاً طويلاً.. واستقرت نظراتها على فريد الجالس بعيداً.. ورقت كلماتها وهي تهمس لناصر: إنني أتمنى أن تقابل تلك الإنسانة التي تحبك بنفس القدر الذي أحبني به فريد.

همس مذبوحاً: شكراً لك.

ما كان يتصور أن يرتبط بانسانة غيرها.. هي ابنة العم رفيقة الصبا وحلم المراهقة.. لو مات وهو شيخ فلن يعرف قلبه أنثى غيرها.

وقالت في همس كأنها تؤاسيه : أنت لا تدري كم أوحشني صوت نايك وأنغامه الشجية . . إنه الشيء الذي أفتقده حولي وبحق ، ولكم تمنيت في لحظات كثيرة أن تكون بقربي ، ولا ينقطع عزفك لي أبداً . . ولكن هيهات أن تحقق لنا الدنيا كل ما نريد .

وشاهد ناصر فريد وهو يوجه إلى سلمى نظرة غاضبة كأنه يلومها على وقوفها مع ناصر كل هذا الوقت ، فهمست تقول لابن عمها في اعتذار : سأنسحب الآن . . وما أن أكمل هذا المشهد حتى آتي معك لرؤية أبي .

قال متهرباً : أنا لن أستطيع الانتظار . . سأذهب الآن . . وهاك العنوان فتعالي بعد التصوير .

وكتب لها العنوان في ورقة صغيرة ثم غادر المكان .

وفي الشقة الصغيرة سألته زوجة عمه في لهفة : أين سلمى؟

فأجابها في ثقة : سوف تأتي . . لقد كان حزنها وتأثرها عظيماً عندما علمت أن والدها مريض .

ولكن ساعات المساء مرت بطيئة حتى شقشق نور الفجر . .

لم تأت سلمى .

* * *

«السقوط»

قالت سلمى في ضيق لفريد وهما جالسان يتناولان طعام الغداء في المطعم الراقي : إنني لا أدري حتى الآن لماذا منعتني أمس من زيارة والدي المريض؟

فتناول لقمة كبيرة ردها مرة واحدة وهو يقول ساخراً : ومن أخبرك أنه مريض . . هل صدقت حقاً هذا الشاب التافه ابن عمك؟

تطلّعت سلمى في ضيق الى فريد . . كان يضايقها دائماً بلهجته الساخرة عن عائلتها . . كأنه دائماً يتعمد أن يذكرها بالمكان الذي جاءت منه . . وأنه لولاه لربما ظلت حياتها إلى أن تموت ، داخل ذلك السيرك المهجور لا يسمع بها إنسان .

وواصل فريد قائلاً وهو يلتهم طعامه في شهية : إنهم

يغارون من نجاحك دون شك ، ولعلهم يرغبون في الحصول على بعض المال منك ، وهذا مؤكد ، ولذلك احتالوا عليك بحجة مرض أبيك .

قاطعته سلمى في حدة : إن والدي لا يفعل ذلك أبداً .

رمقها فريد بتلك النظرة الطويلة التي ما كانت تجرؤ على التطلع إليها طويلاً . . كانت نظرته قوية نفاذة آسرة . . وكانت دائماً تمحو معارضتها . فهمست مكررة وهي تلقي بنظراتها بعيداً : ليس والدي من يفعل ذلك .

قال في قسوة : تذكري أن هذا الوالد الذي تتحدثين عنه قد رفض حضور حفل خطبتنا . . ولو كان يحبك حقاً لأتى ليبارك لك . . ولكن الحقيقة أنه لا يرى فيك غير وسيلة لجلب الجمهور إلى سيركه القديم المتهالك ، وكنت أنت وسيلته إلى كسب المال . . فلما فقد هذا المال أراد الحصول عليه بوسيلة أخرى بادعاء المرض .

لم ترد سلمى بشيء وبقيت صامتة مقطبة . كان فريد دائماً على استعداد لأن يحاصرها بمنطقه وأن يفرض عليها ما يريد . . وهي كانت في حاجة إلى الحماية الدائمة .

وواصل فريد قائلاً : وهذا الشاب التافه ابن عمك . . إنني

لن أسمح له في المرة القادمة حتى بمحادثتك . . ولو رأيته مرة أخرى فسأحطم له عنقه .

شحب وجه سلمى ولم تنطق . . ومد فريد يده القوية ليلتقط أصابعها المرتجفة ، وصوب نظراته إلى عينيها وهو يقول لها : تذكري أننا لاعبان في سيرك نؤدي العاباً خطرة . . ومثل هذه الألعاب تتطلب مرونة عظيمة ولياقة فائقة . . والأهم من ذلك أنها تتطلب أيضاً عقلاً متيقظاً وقادراً على التصرف بسرعة في أسوأ الظروف . . فلو تركنا أنفسنا لعواطفنا ولو للحظة واحدة ونحن فوق ذلك الارتفاع ، لربما كان في ذلك خطأنا الوحيد الذي ندفع بسببه حياتنا .

واجهته في صمت بوجه شاحب . . ورفع اصبعه في وجهها مكرراً : لا عواطف . . تذكري ذلك . . في عملنا لا عواطف . . إنسي أباك وأمك والعالم كله .

واحتضن كفيها بين كفيه هامساً : لا أريدك أن تتذكري أحداً من هذا العالم سواي . . أنا الذي أحبك أكثر من أي إنسان آخر في هذه الدنيا .

دق قلب سلمى بعنف . . تورد وجهها ولمعت ابتسامة متألقة فوق محياها . .

كانت تحب أن تسمع من فريد كلمات الحب . . تلك الكلمات التي لم ينطق بها ناصر أبداً .

وهمس فريد يقول لها : أريدك أن تعرفي أنك معشوقتي . . سبب سعادتي . . أنت التي جعلتني أرى الحياة من منظور مختلف .

وعلا صوته وهو يقول في مرح : أنا أحبك . . أحبك . .

قالت في ارتباك : فريد . . نحن في مكان عام والعيون تحاصرنا . .

فقبل أطراف أصابعها في شوق وهو يواصل : أنا لا أهتم بالعالم كله وأنت معي .

وضحكا معاً .

وغادرا المكان هرباً من العيون التي حاصرتهما . . كان قلب سلمى يقفز من السعادة تشعر أنها بوجود فريد بقربها تمتلك العالم كله .

تنسى العالم كله . . أباها وأمها وكل الدنيا . . لا تعود تتذكر سواه .

وهمس لها وهما يسيران في طريق الكورنيش : ماذا سننتظر أكثر من ذلك . . أنت قلت أنك تريدين اختبار حبي لك

لذلك اخترت أن تكـون خطبتنا طويلة بعض الشيء. . هل لا تزالين في شك من حبي لك؟

تورد وجـهها وألقت ببـصرها إلى النيـل في حيـاء. . فقـال متخابثاً : لم تجيبي على سؤالي؟

واجهته. . وكان وجهـها يشي بالإجابة. . وهمست تقول له : لقـد صرت متـأكـدة من حـبك لي، ثقـتي من أن لي قلبـاً يدق. . بحبك.

صاح كطفل صغير. . وصرخ في المارة : إنها تحبني، وهي قالت ذلك. . أول مرة تقولها. . فاشهدوا على ذلك.

انفجرت سلمى ضاحكة في صخب. . وكتمت ضحكاتها وهي تقول له : لو أنك عملت مهرجـاً لما استطاع مهرج آخر أن يباديك في هذا العمل.

ولكن وجـه فـريد اكـتسى بقـسوة أهاجتـها ذكـرى قـديمة وقال: كـان والدي مهرجاً في سـيرك متـجول. . وأنا لا أحب أن أكون مثله.

وألقى ببـصـره في شـرود مـضـيـفـاً : لقـد أردت أن أكـون الأعظم والأفـضل في أخطر الألعـاب. . إنني أريد لمـن يأتي لمشاهدتي، أن يشـهق من القلق والإثارة. . لا أن يضحك في سخرية على ما أؤديه من حركات بلهاء.

راقبته سلمى في صمت . . في أحيان كثيرة كان يتكشف لها في شخصيته أشياء مجهولة . . وأكثر ما يزعجها هي قسوته التي يبديها في أحيان كثيرة . . حتى نحو أقرب الأقرباء إليه .

والتفت إليها وقد اصطبغ وجهه بجدية شديدة وهو يقول لها : سلمى . . لقد انتظرت طويلاً ، وعلينا أن نضع حداً لهذا الانتظار فلم أعد أطيقه .

وأكمل في صوت بطيء عميق : إننا يجب أن نتزوج وبسرعة . . فما رأيك في أن نقيمه بعد انتهاء تصوير الفيلم مباشرة؟

فوجئت وغمغمت : ولكن يجب أن أستعد قبل ذلك و . .

قاطعها آمراً : إننا لن نحتاج لأي استعداد ، لأننا سنقضي شهر العسل في أوروبا . . سنطوف لندن وباريس وروما . . وبعد أن نعود سنستقر في شقتي الفاخرة .

وضغط على كفها وهو يواصل هامساً : ما رأيك؟

تورد محياها بعلامات خجل . . فقهقه قائلاً : إن السكوت علامة الرضا . .

وصفق بيديه في جزل هاتفاً : هذا رائع . . أخيراً سنتزوج ملكة الحسن والجمال من الشاطر حسن ليخلفا صبياناً وبنات

يعملون جميعاً في أعظم سيركات العالم . . ولسوف يكون حفل الزفاف أسطورياً لا مثيل له . . وسنجعل منه حديث المدينة بأكملها ولو كلفني إنفاق عشرات الألوف .

ثم زم حاجبيه في قسوة وقد انقلب وجهه بطريقة عجيبة قائلاً : ولكن أحداً من أسرتك لن يحضر حفل الزفاف!

أوشكت سلمى أن تعترض فقاطعها في خشونة : إنهم كما رفضوا حضور حفل الخطبة فليس من حقهم حضور حفل الزفاف .

وكانت لهجته آمرة قاسية . . فأطبقت سلمى شفتيها دون أن تهمس بكلمة واحدة .

* * *

وقد كان حفل الزفاف أسطورياً بحق . .

وأفاضت المجلات الفنية في التحدث عن ذلك الحفل قبل إقامته . . وقالت أن حفل الخطبة كان مبتكراً ورائعاً . . فهل سيكون حفل الزفاف أكثر روعة؟

وكانت الدعوة موجهة للآلاف . .

اتسعت مقاعد السيرك للآلاف الذين تلقوا دعوات

الزفاف . .

كان العرض مخصصاً تلك الليلة لحفل الزفاف فقط . . وقد توزعت موائد الطعام والشراب في كل مكان . .

وحضر عشرات الفنانين والصحفيين من أصدقاء سلمى وفريد . .

استطاع سمير بك تنظيم الحفل ببراعة يحسد عليها . . بحيث صار الحفل كإعلان ضخم عن سيركه الكبير ونجميه المفضلين . . فأطلقت بالونات طبعت فوقها صورة العروسين ، ووزعت بطاقات تحمل الصورة نفسها على السائرين في الشوارع والطرقات .

وداخل السيرك انتشرت كرات من الصور والأشرطة الملونة . . وفوق ساحة المسرح راح عدد من الحسناوات يقدمن رقصة رائعة . .

ثم دقت الساعة في العاشرة تماماً في صوت عال . . وظهر سمير بك في ملابس فاخرة ، وأمسك بالميكروفون ليقول لها : والآن حان أوان وصول العروسين . . فلنستعد لاستقبالهما بما يليق بهما من نجومية وروعة .

وتعلق بصر الحاضرين بباب الدخول . . فلم ينتبهوا الى أن

خيمة السيرك الكبيرة راحت تنفتح أتوماتيكياً من منتصفها . .
ثم سلط ضوء إلى أعلى نحو فتحة الخيمة فكشف عما يجرى بأعلى . . وظهرت طائرة هليكوبتر قد طليت باللون الفوسفوري اللامع . . ومن الهليكوبتر قفز اثنان بمظلات صغيرة .

كان أحدهما عروساً فاتنة في فستان زفاف أبيض . . والآخر عريساً في بذلة اسموكنج سوداء . .

وشهق الحاضرون من المفاجأة . . وتعلقت أبصارهم بالعروسين اللذين راحا يهبطان نحو خيمة السيرك . . ثم استقرا فوق حبل مشدود بأعلى بدقة مدهشة .

ولمعت الكاميرا والفلاشات وتحركت عدسات التصوير . وتعالى التصفيق والصفير للعروسين .

وتحركت سلمى ببطء وبحذائها الأبيض ذي الكعب العالي فوق الحبل المشدود كالوتر . . كانت تقدم عرضاً لم تجرؤ لاعبة سيرك على تقديمه من قبل . . دون أن تكون هناك شبكة أمان تتلقاها إذا اختل توازنها . . وفريد يتقدمها بخطوتين .
ومن أسفل راحت موسيقى الزفاف تزفهما والأكف تلتهب في تصفيق حاد وإعجاب لا نظير له .

ولكن فجأة توقفت سلمى مكانها . . أحست باهتزاز خفيف تحت قدميها . . كان الحبل القاسي المشدود يتخلى ويفقد شيئاً من استقامته لسبب غير مفهوم .

وعلى الفور تعلق بصرها بنهاية الحبل المتصل بعمود الصلب القوي العالي وأدركت السر في خلخلة الحبل .

كان انفتاح الخيمة أتوماتيكياً قد جذب الحبل بشدة ، أقسى من طاقته فأوشك أن يمزقه عند أطرافه . . ولم يحتمل الحبل المتآكل ثقل السائرين فوقه فأوشك أن ينقطع . .

وصرخت سلمى وقد أدركت الحقيقة وهي تشاهد الحبل يتقطع بسرعة لا تسمح لها ببلوغ نهايته . .

والتفت فريد نحوها يفصله عنها مسافة خطوتين . . وقد أدرك الحقيقة أيضاً . . والتقت نظراتهما في لحظة خاطفة . .

كان في عينيها فزع ورعب . . وكانت نظراته جامدة قاسية لا حياة فيها . .

وصرخت فيه وهي تمد يديها في جزع مستنجدة . .

ولكنه بسرعة خطا نحو الطرف الآخر القريب لينجو بنفسه . .

وعلى الفور ومضت في ذهنها العبارة التي قالها لها من قبل:

في عملنا لا عواطف . . فتذكري ذلك .

وفي اللحظة التالية انقطع الحبل . . فتهاوت سلمى من أعلى نحو الأرض وسط صرخات الحاضرين .

* * *

«إرادة الحب»

تمدد جسد سلمى دون حراك فوق فراشها وساقها اليسرى في الجبس . . والإبرة المغروزة في ذراعها منذ أيام بقيت مكانها تحمل الغذاء من زجاجة محلول جلوكوز موضوعة فوق حامل بأعلى . . وليس ثمة مظاهر للحياة في الجسد الراقد غير أنات الصدر الخفيضة يتنفسها المؤلم .

ومن حول الجسد الممدد دون حراك جلس الأب والأم يكفكفان دموعهما . . والأب يقول في مرارة من فقد ابناً : سلمى . . لماذا لا تردين علي يا ابنتي . . إنني أبوك . لماذا تصمتين هكذا وتأخذك منا الغيبوبة؟ . إن كنت غاضبة مني يا ابنتي فأنا أطلب سماحك . . سامحيني يا ابنتي واعفي عني وعودي إلي . . إلى والدك الشيخ المسكين الذي لا أحد له

غيرك .

ولكن الجسد المسجى على الفراش ظل بلا حراك . .

ووقف ناصر محاولاً أن يتماسك . . أن يخفي دموعه عن الوالدين الحزينين لكي لا يزيد أوجاعهما وآلامهما . . وتلك الصورة التي نشرتها الجرائد والصحف لسلمى في فستان زفافها الأبيض وهي تمد يدها في فزع مستنجدة بفريد ، وهو يهرول إلى الناحية الأخرى هارباً بحياته .

وتقلصت أصابع ناصر في غضب محموم . . وغمغم في ألم حارق : هذا النذل . . إنه ما كان يستحقها أبداً . . إنه حتى لم يكلف نفسه المجيء للسؤال عنها بعد أن تأكد من خسته ونذالته .

وأغمض عينيه . . لقد كان على استعداد أن يفتديها بحياته . .

حتى لو حماها بجسده وتلقّى عنها السقطة نحو الأرض . .

كان على استعداد لأن يموت لأجل أن تعيش هي .

ولكن هيهات أن تأتي الأماني بالراحة . . فطريق الأشواك يبدأ بخطوة . . ونهايته تكون عامرة بالجراح والآلام .

وأقبل الطبيب يجسُّ نبض سلمى ، فهتف به الأب : كيف

حالها يا دكتور؟

هز الطبيب الخبير رأسه في بعض الأسى وقال: إن حالتها كما هي لم تتحسن. . فقد تهشمت إحدى فقرات عمودها الفقري، ولكنها ستلتئم مع الوقت مع ساقها المكسورة. . وإن كان ما حدث سيمنعها من أن تعود إلى السيرك أبداً. . وهذه الفتاة حسنة الحظ بالفعل لأن ما حدث لها كان يمكن أن يهشم عمودها الفقري فتصاب بشلل كامل، أو تصاب في مخها. . ولكن سقطتها جاءت خفيفة بعض الشيء بسبب مرونة جسدها الفائقة، ولأنها استطاعت أن تعدل من جسدها وهي في الهواء بحيث تسقط فوق قدميها لتخفف من صدمتها، وهي قد أفلحت في ذلك بعض الشيء فأنقذت حياتها. .

وصمت لحظة ثم أضاف في إشفاق: إنها فتاة شجاعة جداً. . ولكنها في حاجة إلى مزيد من الشجاعة لتسترد ما ضاع منها. . في حاجة إلى إرادة الحياة.

فسألته الأم متلهفة: وهل ستستعيد وعيها؟

فرفع الطبيب يديه في استسلام قائلاً: إنها في حاجة إلى معجزة. . فقد جربنا معها كل وسائل العلاج والتنبيه دون

فائدة . . فكل أجهزة جسمها تعمل بصورة طبيعية ، ولكن تلك الغيبوبة قد تكون بسبب شيء ما أصاب مخها . . ومن يدري . . إن كثيرين ظلوا في تلك الحالة من الغيبوبة في مثل حالتها إلى أن ماتوا .

صرخت الأم في التياع : لا . . لا يمكن أن تموت ابنتي وهي على هذه الحالة .

ومسح الأب الشيخ دمعة سالت من عينيه ونهنه بالبكاء كطفل صغير . . وقال ناصر للطبيب وهو يمسح دموعه : لا بد أن هناك أملاً يا دكتور . . لا بد أن هناك علاجاً ما . . أخبرني من أين آتي به ولو كلفني كل ما أملك .

حدق الطبيب بإشفاق نحو ناصر . . وقال في رقة : إن الأمل الآن معقود على المريضة نفسها .

هتف ناصر في دهشة : سلمى؟

واصل الطبيب في توكيد قائلاً : في مثل هذه الحالات فإن المخ والعقل الباطن للمريض يتحكمان في رد فعله واستعادته لوعيه ، فإن كانت لديه رغبة قوية في الحياة فإن أجهزته تعمل لاستعادة وعيه . . أما إذا كان المريض يائساً وكارهاً لحياته فإنه . .

ولم يكمل الطبيب وغادر الحجرة صامتاً . .

وأغمض ناصر عينيه في ألم . . وهمس لنفسه في مرارة : أي رغبة في الحياة يمكن أن تراودها ، بعد أن شاهدت الإنسان الوحيد الذي أحبته وهو يهرب ناجياً بحياته ، وهي تمد يدها إليه متوسلة أن ينقذها ، دون أن يتوقف أمامها لحظة واحدة .

وتمالك ناصر نفسه ، وربت فوق كتف الشيخ العجوز في إشفاق قائلاً : عد إلى المنزل يا عمي وسأبقى بجوار سلمى .

فقال الشيخ في إصرار : لن أتحرك من مكاني وأتركها .

قالت الأم باكية : لن يفيد بقاؤك في شيء وأنت في حاجة إلى بعض الراحة . . وعلينا أن نتبادل نوبات السهر على سلمى مع ابن عمها .

هز الشيخ العجوز رأسه في أسى . . وألقى نظرة أخيرة على ابنته وبلل كفها البارد بدموعه ، ثم سار متوكئاً على ذراع زوجته ليغادر المكان .

وبقي جسد سلمى مسجى على الفراش . . وناصر واقف أمامها .

بقيا وحدهما . . وما كان يتخيل أن يجمعهما القدر معاً . . وعلى تلك الصورة .

وجاهد ليمسح دمعة كادت تفلت منه . . وجثا بجوار الجسد الراقد دون حركة ، وسالت دموعه فوق فراشها وقد أسند رأسه بجوار كفها المفتوح الذابل . . همس يقول لها كأنه يناجيها : لا تذهبي أيتها المحبوبة . . لا ترحلي لأجلي . . أنا الذي أحببتك طوال عمري أكثر من أي شيء في العالم . . لا تتركيني وحدي أصارع وحشة هذا العالم القاسي . . لا تحكمي علي بالموت وأنا حي برحيلك عني .

ولكن الجسد الممدد بلا حراك ظل على سكونه . . والعينان المطبقتان لم ترمشا . . والشفتان المقفلتان لم تنطقا حتى بآهة ألم . .

وأخفى ناصر وجهه بين كفيه . . لم يكن يحتمل المشهد أمامه . . وهمس في أسى قاتل : آه أيتها الحبيبة .

وتذكر لحظة رآها أول مرة . . لحظة أن فتحت قلبه لها . . وقتها التمس لها بعض العذر ، وعرف أن ذلك الوغد فريد يمارس عليها سيطرة كاملة باسم الحب . . ذلك الحب الذي تكشف عن حقيقته فإذا هو وهم وسراب . . ولم يكن الحبيب غير فأر جبان يهرب عند أول بادرة خطر . . تاركاً المحبوبة تصارع الموت وحدها .

وتذكـر كـلمـاتهـا وهـي تهـمس له : إنـك لا تدري كم أوحـشني صـوت نايك وأنغـامـه الشـجـيـة . . إنه الشيء الذي افتقـدته حولي بحق ، ولكم تمنيت في لحظات كثيرة أن تكون بقربي ولا ينقطع عزفك لي أبداً .

وقد كان هو بقربها . . وان اختلفت الأحوال . .

ولكنه ما كان يستطيع أن يرفض لهـا أمنيـتهـا الأخيـرة . . حتى وهي مسجاة في غيبوبة لا تشعر بما يدور حولها .

وأخرج نايه من جيب سترته .

وراحت أصابعه تعزف على الناي ودموعه تغرق أصابعه . . والناي يئن بأنغـام شـجية سـاحـرة عـذبة . . نفس الأنغـام التي اعتاد أن يطلقـها بجوار باب حجرتها في السيـرك القديم ، كلما أعياه حبه لها ومنعه الحياء من أن يكاشفها به . .

راح يعزف وقد غـاب عن الدنيـا . . عـزفـاً كـالمناجـاة . . كالهمس . . كالبكاء . . كالأنين .

تحول الناي إلى لسان ينطق بكل ما يجيش به القلب من لوعة لوقت طويل . .

فـجأة رمـشت العينان المغمـضـتان . . وارتعـشت الشـفتـان المطبـقـتان ارتعـاشـة يسيـرة . وجن جنون ناصـر . . لم يصـدق

عينيه. . أدرك السر فجأة. .

إن السر في نايه. . في تلك الأنغام الشجية العذبة التي تمنت سلمى أن تسمعها. . كأن ذلك العزف الشجي نبه حواسها الغائبة. . كأنه حرك فيها الرغبة في الحياة وأيقظها بعد طول سبات. . كأن تلك النغمات أعادت إليها ذكرى حبيبة طردت عن قلبها كل لحظات الألم والمعاناة الأخيرة. .

فتحت سلمى عينيها. . وارتعشت شفتاها.

أفاقت أخيراً وكان أول ما طالعته هو وجه ناصر. . ونايه. . ودموعه.

بنظرة واحدة أدركت أين ترقد. . وتذكرت على الفور كل ما حدث لها. .

أغمضت عينيها في أسى قاتل عندما تذكرت يدها الممدودة إلى من ظنت أنها تحبه. . وهو يهرب ناجياً بحياته دون أن يترك لقلبه لحظة عاطفة واحدة ليمد لها يد الإنقاذ.

وقال ناصر لها من بين دموعه: حمداً للّه على سلامتك. . لقد كدنا نيأس من أن تستعيدي وعيك ثانية بعد تلك الأيام الطويلة من الغيبوبة.

همست في ألم تسأله: وهو ألم يأت للسؤال عني؟

عضّ على شفتيه مغالباً قسوة آلامه وجراحه وقال لها: إن

شئت سأذهب لآتي به لك .

ولكنها أمسكت ذراعه بأصابعها الواهنة وهمست تقول في إعياء : لا . . لا تذهب . . إنه لا يستحق أن أفكر فيه لحظة واحدة . .

ورنت ببصرها إلى يدها اليمنى . . ولكن اليد لم يكن بها أي قيد ، فأدركت أن الدبلة تحطمت في سقوطها ، فندت عنها همسة ارتياح . .

وقال ناصر من بين دموع السعادة : لا أصدق أنك استعدت وعيك ثانية وأن إرادة الحياة قد انتصرت لديك .

فأجابته وهي تتملى ملامحه وقد تكشف لها حسنه لأول مرة : لقد كنت أشعر خلال هذا الوقت بأنني ميتة . . كنت لا أعي ولا أرى أو أسمع . . ولكن كان بداخلي رغبة لا تقاوم في الموت لأرتاح من جراح قلبي . .

وتركت نفسي للموت يتسلل إلى روحي ببطء . . ولكن فجأة راح شيء عذب يتسلل إلى قلبي ليعيد إليه الرغبة في الحياة . . كأنما هو بلسم يشفي ، أو ريح طيبة أعادتني إلى ذكرى حبيبة ماضية . . أو كأنها إرادة الحب . .

وتأملته بابتسامة منهكة وهي تضيف : إنني مدينة لك بحياتي مرتين .

قال في صوت متهدج : عمري كله فداك .

همست : آه أيها الحبيب الوفي . . كيف عميت عيناي عنك كل هذا الوقت وخدعتني مشاعر زائفة . . ؟

قفز قلب ناصر من بين ضلوعه . . ظن أن أذنيه قد خدعتاه . . ولكنها لمست أصابعه برقة كأنها تعيد توكيد ما قالته وهي تواصل الهمس : بعد الآن لن يفرقنا شيء أبداً . . وسوف أهبك من الحب نفس القدر الذي تحمله في قلبك لي أيها المخلص الوفي .

همس في شجن : أرجوك كفى . . إنني لا أحتمل ما أسمعه وأخشى أن يكون وهماً . .

قالت تؤاسيه : لو أنك أحسست بما أحسست أنا به وأنا فوق ذلك الحبل المهترئ المتآكل وأنا أمد يدي طلباً للعون إلى الإنسان الذي اختاره قلبي . . ولكنه كان يسارع بالهرب في نفس اللحظة لينجو بحياته . .

وتألقت دموعها وهي تواصل : لو أنك كنت مكانه لما تخليت عني أبداً ولو كان الثمن حياتك . . فكيف لا أسدد ديني لك بحب عظيم . . إنني لو عشت عمري كله أهبك حباً خالصاً فلن أسدد دينك . . ويكفي أنني بجوارك سأشعر

بالأمان . . ولن أخاف من أي شيء في العالم .

وأغمضت عينيها في ألم فهمس ناصر يقول لها : لا تتحدثي ثانية . . إن الحديث يجهدك .

ولكنها واصلت بعينين مغمضتين قائلة : لقد كنت أشعر أنني أصارع نفسي وأنا أبحث عن طريق لي مفروش بالأشواك . . وها قد دفعت في النهاية ثمناً غالياً .

قال مؤاسياً : سوف تشفين وتطيب كل جراحك . . الطبيب قال ذلك .

فتحت عينيها وقالت في سعادة : لا يهمني ما سيحدث لي بعد ذلك ، قلت لك من قبل أن وجودك بقربي يجعلني أشعر بالأمان . . فكيف أخاف اليوم من أي شيء في العالم وأنت قد عدت إلي . . أو أنا قد عدت لك . . وعادت الأيام القديمة الحلوة مرة أخرى؟

لم ينطق ناصر بشيء . . خانه لسانه . . امتدت يده إلى المنديل المزركش في جيبه . . لم يكن يدري لماذا احتفظ به طوال الوقت في جيبه منذ استعاد حلى والدته .

فتح المنديل باصابع مرتعشة . . برزت الحلى القديمة والدبلة الذهبية فيها . .

تلاقت أبصارهما . .

لمح في عينيها أطياف سعادة وراحة لا حد لها . . سعادة من يصل إلى مرفأ الأمان بعد أن قاسى عواصف عاتية .

ورفعت سلمى كفها اليمنى أمامه . . رآها تمد يدها إليه . . تدعوه لأن يرتبطا إلى الأبد . . فالتقط الحلى الذهبية وحلّى بها معصمها . . ثم أمسك الدبلة الذهبية بأصابع مرتجفة وأدخلها في أصبع يدها اليمنى .

كانت على مقاسها تماماً . . كأنها صنعت خصيصاً لها . .

ومن حافة النافذة غرد عصفور ذهبي اللون مطلقاً صيحة ابتهاج وهو يراقب ما يدور داخل الحجرة . . قبل أن يحلق في السماء البعيدة المشرقة بالضياء ، ناشراً جناحيه الملونين ، يستقبل بهما رياح السعادة والهناء .

* * *

الفهرس

طريق الأشواك

عاشت سلمى عمرها كله تحلم بالشهرة والمال الكثير.. ولم يكن السيرك المتواضع الذي يملكه والدها وتعمل فيه، يمكن أن يحقق لها ما تحلم به وتتمناه.. وعندما لاحت لها اول بادرة للخروج من شرنقتها الضيقة لم تتردد.. دون أن تفكر لحظة واحدة في القلب الذي كان يدق بحبها.. والذي تركته خلفها كسيراً محطماً..

وهكذا بدأ طريق الأشواك.. فكيف سينتهي ؟

دار الجيل
بيروت